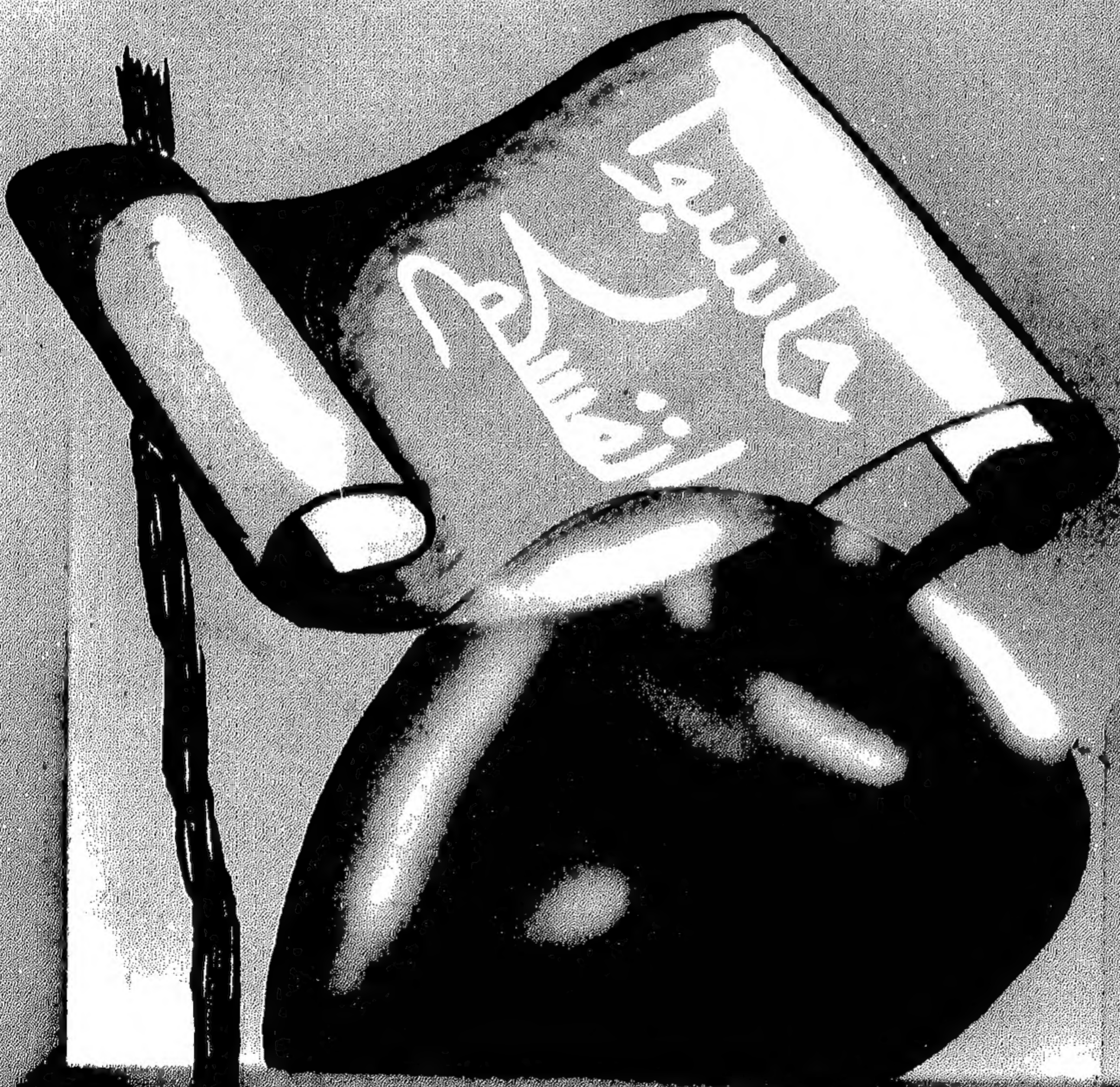


حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ

قَبْلَ أَنْ تَقُتِلُوا

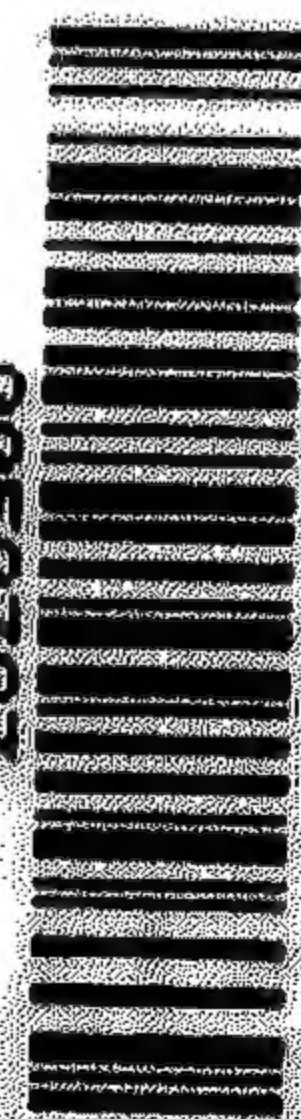


مكتبة



Bibliotheca Alexandrina

0050383



29

المكتبة التوفيقية

كتبة

29723
ح

٧١٨

حاسبوا أنفسكم قبل أن تموتوا

الهيئة العامة لكتبة الإسكندرية
رقم التصنيف 29723 ك. ح. ح
رقم التسجيل ٢٢١٢٣



General Library (GOAL)

تأليف

عبد الحميد كشك

التواب والعقاب
الغاية ما يؤمن
الحياة الآخرة
الجنة والنار

الملكبة التوفيقية

امام الباب الأخضر - سولنا الحسن



﴿مقدمة الكتاب﴾

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين،
وأشهد أن سيدنا وحبينا وعظيمنا محمداً رسول الله.

أما بعد....

فقد كان فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- يقول:
حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا فإن مما
يهون عليكم الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض
الأكبر ﴿يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾^(١).

رحمك الله يا أمير المؤمنين فأنت الرجل الذي ضرب الله الحق على
قلبه ولسانه، يا من كنت تخاف من الله تعالى خوف من يعتقد أن النار
لم تخلق إلا له وحده فمن خاف سلم، لقد غصت في معاني آيات
الحساب حتى بلغت إلى أعماق الأعماق وجرى دمك على خديك
وخفق قلبك وجللاً وخوفاً من لقاء الله تعالى، وفهمت أن لقاء الله حق،
واعتقدت أن البعث حق وأن الساعة حق وأن الجنة حق وأن النار حق،
فصمت عن الدنيا وأفطرت على الموت وأعددت الزاد لليلة صبحها يوم
القيامة.

(١) سورة الحاقة الآية ١٨.

يا رافعاً راية الشورى وحارسها
جزاك ربك خيراً عن مُحِبِّيها
رأى الجماعة لا تشقى البلاد به
رغم الخلاف ورأى الفرد يُشَقِّقِها
إن جاع فى شدة قوم شَرِكْتَهُمْ
فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها
جوع الخليفة - والدنيا بقبضته -
فى الزهد منزلة سببحان موليها
فمن يبارى أبا حفص وسيرته
أو من يحاول للفاروق تشبيها
يوم اشتتت روجه الحُلُوى فقال لها:
من أين لى ثمن الحُلُوى فأشترىها؟
مازاد عن قوتنا فالمسلمون به
أولى فقومى لبيت المال رُدِّيها
كذاك أخلاقه كانت وما عُهِدَتْ
بعد النبوة أخلاق تحاكيها
وراع صاحب كسرى أن رأى عُمراً
بين الرعية عُظْلاً وهو راعيها
فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملاً
ببردة كاد طول العهد يبلّيها
وعهده بملوك الفرس أن لها
سُوراً من الجند والأحراس يَحْمِيها

رآه مستغرقاً في نومه فرأى
فيه الجلالة في أسمى معانيها
وقال قَوْلَةً حَقُّ أصبحت مثلاً
وأصبح الجيل بعد الجيل يرويهـا
أمنت لما أقمت العدل بينهم
فَنِمْتُ نَوْمَ قَرِيرِ العين هَانِيهـا
قد كنت أعدى أعاديها فصرت لها
بنعمة الله حصناً من أعاديها

أيها الأخ المسلم

لا تنس ما بعد الموت، فنسيانه ضلال مبين، فاذكر اثنين وانس
اثنين، ولا تنهر اثنين واحفظ اثنين ولا تأمن اثنين على اثنين.
اذكر الله والموت، وانس إحسانك إلى الناس، وإساءة الناس إليك،
ولا تنهر أمك ولا أباك، واحفظ صمتك وأوقات فراغك، ولا تأمن امرأة
على سر، ولا تأمن رجلاً على امرأة.

واعمل عقلك وقلبك وفكرك في فهم قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ. لَا
يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾^(١).

(١) سورة الحشر الآيات [١٨ : ٢٠].

فصل

فيما يرقق القلب ويملؤه خشوعاً وخشية لله تعالى

الحمد لله رب العالمين، وأصلى وأسلم صلاة وتسليماً يليقان بمقام أمير الأنبياء والمرسلين. وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمنا وحبیبنا محمداً رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين. صل اللهم وسلم وبارك على هذا النبي الأمين، وعلى آله وصحابه الغر الميامين، وارحم اللهم مشايخنا، ووالدينا وأمواتنا وأموات المسلمين أجمعين.

الحمد لله الذي لا تدركه الأوهام ولا الظنون ولا تحويه الأبصار ولا العيون ولا تناله الآفات ولا المنون، الذي أنزل الكتاب المكنون وأرسل السحاب الهتون وأخرج رطب الثمار من يابس الغصون وخلق الإنسان من صلصال من حمإ مسنون وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون. تكونت بقدرته الأشياء وتوالت برحمته الآلاء وانشقت بحكمته الأرض والسماء، وكتب بمشيئته السعادة والهناء فيرحم من عباده من يشاء وإليه تقلبون. الشافي صدور أولى الألباب النافي باتقان مصنوعاته كل شك وارتياب ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾^(١).

أنشأ بحكمته أصناف المبتدعات، وقدر الأشياء من ماضٍ وآتٍ وغفر بالمتاب سائر الخطيئات ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون﴾^(٢) مبدع الدهور بالأحداث ومصور الذكور والإناث وباعث من في القبور فينهضون بالانبعاث ﴿ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون﴾^(٣).

(٢) سورة الشورى الآية ٢٥.

(١) سورة الروم الآية ٢٠.

(٣) سورة يس الآية ٥١.

﴿وجعل الشمس سراجاً﴾^(١) ﴿وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً﴾^(٢) . ﴿ولو نشاء لجعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾^(٣) .

الكريم الشكور الرحيم الغفور المتزه في أقضيته عن أن يظلم أو يجور ﴿الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾^(٤) . مالك الأشياء بالطول والعرض وقبل من عباده السنن والفرض وإليه المآب والعرض . ﴿وله من في السماوات والأرض كل له قانتون﴾^(٥) .

أتقن خلق الإنسان وأبدع وركب فيه حركاته وأودع ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع . قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون﴾^(٦) . أوضح سبيل الرشاد وبين مسالكه، وأسبغ على العباد نعمه المتداركة ونور وجوه الموحدين فهي مسفرة ضاحكة ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة . هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾^(٧) .

أرسل من المعصرات الماء إلى الأرض، وأنزل وأسبغ بفضله الآلاء، وحول وقضى على خلقه بما شاء وأجزل . ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يسألون﴾^(٨) . أتقن صنعة خلق العالم وأحكم وجاد عليهم بفائض رزقه، وأنعم ويدرك بهم السر المكنون المبهم ﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾^(٩) . رب المشرقين ورب المغربين ومنور الكون بالنييرين ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾^(١٠) أفاض على أوليائه من جزيل نعمائه فضلاً ونوالاً وأعد لأعدائه من عذابه وبالاً ونكالاً وحجبهم

-
- | | |
|-------------------------------|-------------------------------|
| (١) سورة نوح الآية ١٦ . | (٢) سورة النبا الآية ١٤ . |
| (٣) سورة الواقعة الآية ٧٠ . | (٤) سورة الأنعام الآية ١ . |
| (٥) سورة الروم الآية ٢٦ . | (٦) سورة الأنعام الآية ٩٨ . |
| (٧) سورة الأنبياء الآية ١٠٣ . | (٨) سورة الأنبياء الآية ٢٣ . |
| (٩) سورة النحل الآية ٢٣ . | (١٠) سورة الداريات الآية ٤٩ . |

عن إدراكه فلا يتوهمون له شبيها ولا مثالا ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾^(١).

ليس كمثله شيء ولا لنشر فضله طي ولا يعترى المهتدى إلى سبيله في... ﴿يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾^(٢) أحمدته حمدا يتقرب به المتقربون.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنفع قائلها يوم لا ينفع مال ولا بنون .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي العربي الأمين المأمون . . . صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون .

وبعد : فهذه ذكرى وعبر ، والذكرى تنفع المؤمنين .

فصل

إياك والجن وكن شجاعاً واعلم بأنه
لا يملك الروح والرزق إلا الله تعالى

وعن هذا الداء الخطير وهو الجن نقتطف كلمات للإمام الشيخ

محمد عبده :

يقول رحمه الله تعالى : فما العلة في إخلاد الجمهور الأعظم من بنى الإنسان إلى دنيات المنازل وقصورهم عن الوصول إلى ما أعدته لهم العناية ويستفزههم إليه الميل الغريزي خصوصاً وإن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعدده ووعيده ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات . . . وتعترف بيوم العرض الأكبر

(١) سورة النحل الآية ١ .

(٢) سورة الروم الآية ١٩ .

يوم تجزى كل نفس بما كسبت ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (١) .

ماذا يقعد بالنفوس عن العمل الصالح ؟

ماذا ينحدر بها فى مزالق الزلل ؟

إذا ردت المسيبات إلى أسبابها وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها : وجدنا لهذا علة هى أم العلل ، ومنشأ يقرن به كل جلل وهو (الجبن) . . «وعن أضرار الجبن» قال : «الجبن هو الذى أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها» .

هو الذى قطع روابط الأمم فحل نظامها . هو الذى أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت بروجهم وهو الذى يغلق أبواب الخير فى وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين .

يسهل على النفوس احتمال المذلة ، ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل ، يوطن النفس على تلقى الإهانة بالصبر والتذليل وبالجلد ويوطئ الظهور الجاثية لأحمال المصاعب أثقال مما كان يتوهم عروضه عند التحلى بالشجاعة والإقدام .

والجبن : يلبس النفس عاراً عند كل روح زكية وهمة عالية .

والجبن : مرض من الأمراض الروحية يذهب بالقوة الحافظة للوجود التى جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية . وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع إلى الخوف من الموت .

والموت : مآل كل حى ومصير كل ذى روح .

ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم ، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر فى كل لحظة ولا يعلمه إلا مقدر الآجال . . جل

(١) سورة الزلزلة الآية [٧ ، ٨] .

شأنه : ﴿وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت﴾^(١). يشتد الخوف من الموت إلى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم والذهول عما أعده الله للإنسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة إذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله .

نعم يغفل الإنسان عن نفسه فيظن ما جعله الله واقعاً للحياة وهو الشجاعة والإقدام . سبباً في الفناء يحسب الجاهل أن فى كل خطوة حتفاً ، ويتوهم أن فى كل خطوة خطراً مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الإنسانية وما ناله طلاب المعالى من الفوز بآمالهم ، وما ذللوا من المصاعب فى سيرهم تكشف له أن تلك المخاوف إنما هى أوهام وأصوات غيلان ووساوس شياطين . غشيته فأدهشته ، وعن سبيل الله صدته ومن كل خير حرمته .

الجبين : فخر تنصبه صروف الدهر وغوائل الأيام لتغتنل به نفوس الناس ، وتلتهم به الأمم والشعوب . هو حباله الشيطان يصيد بها عباد الله ويصدهم عن سبيله .

هو علة لكل رذيلة ومنشأ لكل خصلة ذميمة لا شقاء إلا وهو مبدأه ولا فساد إلا وهو جزئومه ولا كفر إلا وهو باعته وموجبه .

ممزق الجماعات ومقطع روابط الصلات ، هازم الجيوش ومنكس الأعلام ومهبط السلاطين من سماء الجلالة إلى أرض المهانة !

والجبين : هو الذى يحمل الخائنين على الخيانة فى الحروب كما أنه هو الذى يبسط أيدى الأوفياء لدنيئة الارتشاء ، وأن الخوف من الفقر يرجع فى حقيقته إلى الخوف من الموت وهو علة الجبن .

والجبين : عار وشنار على كل ذى فطرة إنسانية . خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويؤمنون أن ينالوا جزاء أعمالهم أجراً حسناً ومقاماً كريماً .

(١) سورة لقمان الآية ٣٤ .

واجب المسلمين

وعن واجب المسلمين قال : (ينبغي أن يكون أبناء الملة الإسلامية بمقتضى أصول دينهم أبعد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجن) فإنها أشد الموانع عن أداء ما يرضى الله وأنهم لا يبتغون إلا رضاه .

يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت : علامة الإيمان ، وامتنحن به الله قلوب المعاندين يقول فى ذم من ليسوا بمؤمنين : ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾^(١) .

الإقدام فى سبيل الحق وبذل الأموال والأرواح فى إعلاء كلمته ، أوسمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتف الكتاب الإلهى بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الأيدي ، وعدّ ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون والمنافقون ، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح فى إعلاء كلمة الحق والعدل الإلهى بل عده الركن الوحيد الذى لا يعتد بغيره عند فقده . لا يظن أنه يمكن الجمع بين الدين الإسلامى وبين الجن فى قلب واحد .

كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الإقدام ، وأن عماده الإخلاص لله والتخلى عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه . المؤمن من يؤمن أن الآجال بيد الله يصرفها كيف يشاء ، ولا يفيد التباطؤ عن الفروض زيادة فى الأجل ولا ينقصه الإقدام دقيقة منه .

المؤمن من لا ينتظر بنفسه إلا إحدى الحسنين إما أن يعيش سيّدًا عزيزًا وإما أن يموت مقربًا سعيدًا . وتصعد روحه إلى أعلى عليين ويلتحق بالأكرمين والملائكة المقربين .

(١) سورة النساء الآية ٧٧ .

الجبين والإيمان

من يتوهم أنه يجمع بين (الجبين) وبين الإيمان بما جاء به حبيبنا محمد ﷺ فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه، بل هو ليس من الإيمان فى شىء. كل آية من القرآن تشهد على (الجبان) بكذبه فى دعوى الإيمان.

لهذا نؤمل من ورثة الأنبياء (العلماء) أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الأمر بالإقدام لإعلاء كلمته والنهى عن التباطؤ والتقاعد فى أداء ما أوجب الله من ذلك.

واجب العلماء

وأغلب الظن عندى أن العلماء إذا قاموا بهذه الفريضة فريضة (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) زمناً قليلاً ووعظوا الكافة يتبين معانى القرآن الشريف وإحيائها فى نفوس المؤمن لرأينا لذلك أثراً فى هذه الملة السمحة يبقى ذكره أبد الدهر لشهدنا له يوماً تسترجع فيه مجدها فى هذه الدنيا وهو مجد : الله أكبر.

فالمؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن فى أفئدتهم من آثار العقائد: لا يحتاجون إلا لقليل من التنبيه وبشئ يسير من التذكير فينهضوا نهضة الأسود فيستردوا مفقوداً ويحفظوا موجوداً وينالوا عند الله مقاماً محموداً .

فصل

مرض الرسول ﷺ ووفاته

ذكر كتاب السيرة أن رسول الله ﷺ بعد أن عاد من حجة الوداع أمر بتجهيز جيش عروم إلى الشام جعل فيه المهاجرين الأولين (منهم: أبو بكر الصديق، وعمر رضى الله عنهما) وأمر على الجيش (أسامة بن زيد بن حارثة) وكان أسامة يومئذ حدثاً لا يكاد يعدو العشرين من سنه،

والنبي ﷺ إنما أراد بتعيين (أسامة) أن يقيمه مقام أبيه الذي استشهد في موقعة (مؤتة) وأن يجعل له من فخار النصر ما يعجزى به ذلك الاستشهاد وما يبعث إلى جانب ذلك في نفس الشباب الهمة والحمية ويعودهم الاطلاع بأعباء أجسام التبعات، وخرج (أسامة) والجيش معه إلى (الجرف) يتجهزون للسفر إلى (فلسطين) وبينما هم كذلك إذ حال مرض الرسول ﷺ ثم اشتداد المرض به دون مسيرهم.

وقد يسأل إنسان : كيف يحول مرض الرسول ﷺ دون مسيرة جيش أمر بجهازه وسفره؟ ونحن نقول : إن مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصحارى أيامًا طويلة ليست بالأمر الهين، ولم يكن يسهل على المسلمين والنبي أحب إليهم من أنفسهم أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم يعلمون ما وراء هذا المرض، ثم إنهم لم يعرفوا قط - من قبل - أنه شكا مرضًا ذا بال. إذ أن حياته وتعاليمه كانت تنأى به عن المرض فهذا الزهد في الطعام ونيل القليل منه، وهذه البساطة في اللبس والعيش، وهذه النظافة التامة نظافة يقتضيها الوضوء والسواك الدائم (وكان يحبه ﷺ ويحرص عليه حتى يقول : إنه لولا خوفه أن يشق على قومه لفرض عليهم السواك في اليوم خمس مرات).

هذا النشاط الدائم - نشاط العبادة - من ناحية، ونشاط الرياضة من ناحية أخرى. وهذا القصد في كل شيء وفي الملذات قبل كل شيء. وهذا السمو عن عبث الأهواء. وهذه الرفعة النفسية التي لا تدانيها رفعة. وهذا الاتصال الدائم بالحياة وبالكون في خير صور الحياة وأدق أسرار الكون.

هذا كله يجنب صاحبه المرض، ويجعل الصحة عظيم حظه. فإذا كان سليم التكوين، قوى الخلق - كما كان رسول الله ﷺ - جفاه المرض ولم يعرف إليه سبيلاً.

فإذا مرض كان طبيعيًا أن يخاف محبوه وأصحابه وكان طبيعيًا أن

يخافوا وهم قد رأوا ما عاناه من مصاعب الحياة خلال ثلاث وعشرين سنة متتابعة، لاقى فيها من الشدائد ما تنوء الجبال عن حمله فى شتى سبل الحياة. وأى موقف أشد من موقفه (يوم أحد) . . حين ولى المسلمون وسار وهو يصعد الجبل ورجال قريش يشتدون فى تتبعه ويرمون، حتى كسرت رباعيته.

وأى موقف أشد هولاً من موقعة (يوم حنين) حين ولى المسلمون فى عماية الصبح مولية الأدبار وهو ينادى فى المسلمين (إلى أين . . ؟ إلى أين . . ؟ إلى . . . إلى . . .) حتى عادوا وحتى انتصروا.

وأى مجهود أشق من مجهود الرسالة والوحى، وهذا المجهود الروحى المضنى فى اتصاله بسر الكون والملا الأعلى ؟ ﴿يا أيها المزمّل . قم الليل إلا قليلاً . نصفه أو انقص منه قليلاً . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً . إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً . إن ناشئة الليل هى أشد وطناً وأقوم قيلاً﴾ (١).

وهذا المجهود فى تلقى أوامر الله والذى روى بسببه عن النبى ﷺ أنه قال : (شيتنى هود وأخواتها) . . قيل : وما شيك فيهما قال : قوله تعالى ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا . إنه بما تعملون بصير﴾ (٢).

رأى أصحاب رسول الله ﷺ هذا كله، ورأوه يحمل العبء صلباً قوياً، لا يعرف المرض إليه طريقاً فإذا مرض بعد ذلك : فمن حق أصحابه أن يخافوا وأن يتمهلوا فى السير من معسكرهم (بالحرف) إلى الشام حتى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله فى نبيه ورسوله ﷺ.

وهذا حادث وقع جعلهم أشد خوفاً : فقد استيقظ رسول الله ﷺ أول ما بدأ يشكو وطال أرقه وحدثته نفسه أن يخرج فى ليل تلك الأيام

(١) سورة المزمل الآيات [١: ٦].

(٢) سورة هود الآية ١١٢ .

الرقيقة النسيم فيما حول المدينة . . وخرج ولم يستصحب معه أحداً إلا مولاه (أبا مويهبة) .

أفتدري أين ذهب؟

ذهب إلى (بقيع الغرقد) حيث مقابر المسلمين على مقربة من المدينة فلما وقف بين المقابر قال يخاطب أهلها: (هنيئاً لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه أقبلت الفتن تقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها والآخرة شر من الأولى) .

وقد حدث «أبو مويهبة» أن النبي ﷺ قال له أول ما بلغنا (بقيع الغرقد): (إني أمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع . . فانطلق) فلما استغفر لهم وأن له أن يؤوب: أقبل على «أبي مويهبة» فقال له: (يا أبا مويهبة: إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلود فيها، ثم الجنة فخيرت بين ذلك بين لقاء ربي والجنة) .

قال أبو مويهبة: بأبي أنت وأمي فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة .

قال سيدنا رسول الله ﷺ: (لا والله يا أبا مويهبة لقد اخترت لقاء ربي والجنة) .

أصبح رسول الله ﷺ في الغداة، ومر بعائشة -رضي الله عنها- فوجدها تشكو صداعاً في رأسها وتقول: واراأساه! فقال لها: وقد بدأ يحس ألم المرض: بل أنا والله يا عائشة . . واراأساه! .

لكن شكواه لم يكن قد اشتد إلى الحد الذي يلزمه الفراش أو يحول بينه وبين ما عود أهله وأزواجه من تल्पف .

وكررت عائشة - - رضي الله عنها - - الشكوى من صداعها حين سمعته يشكو به فقال لها: (وما لو مت قبلي، فقمتم عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك)؟ .

وأثارت هذه الملاحظة حب الحياة في نفس عائشة -رضي الله عنها-

فأجابت : (وليكن ذلك حظ غيرى ! والله لكأنى بك لو قد فعلت ذلك :
لقد رجعت إلى بيتك فأعرست فيه ببعض نسائك). وتبسم النبي ﷺ.

فلما سكن عنه الألم بعض الشيء : قام بتفقد حال أهله ، لكن
الألم جعل يعاوده ، فتزداد به شدته حتى إذا كان فى بيت أم المؤمنين
(ميمونة بنت الحارث) -رضى الله عنها- لم يطق ، فغالبه الألم ورأى
نفسه فى حاجة إلى تمريض .

هنالك دعا نساءه إليه فى بيت ميمونة واستأذنهن بعد أن رآين حاله
أن يمرض فى بيت عائشة وأذن له أزواجه فى الانتقال . . فخرج عاصباً
رأسه يعتمد فى مسيرته على (على بن أبى طالب) -كرم الله وجهه-
وعلى عمه (العباس) وقدماه لا تكادان تحملانه حتى دخل بيت (عائشة)
-رضى الله عنها- وزادت به الحمى فى الأيام الأولى من مرضه حتى
لكان يشعر كأن به منها لهباً .

لكن ذلك لم يكن يمنعه ساعة تنزل به الحمى من أن يمشى إلى
المسجد ليصلى بالناس . وظل على هذا عدة أيام لا يزيد على الصلاة ولا
يقوى على محادثة أصحابه ولا خطابهم .

ولما اشتدت عليه الحمى أمر أزواجه أن يصبين عليه بعض قرب
الماء . . ففعلن ذلك ثم قام فلبس ثيابه وعصب رأسه وخرج إلى المسجد
وجلس على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على أصحاب (أحد)
واستغفر لهم وأكثر من الصلاة عليهم ثم قال : (أيها الناس أنفذوا بعث
«أسامة» فلعمري لئن قلت فى إمارته لقد قلت فى إمارة أبيه من قبله وإنه
لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها). ثم سكت هنيهة خيم الصمت
على الناس أثناءها ثم عاد إلى الحديث فقال : (إن عبداً من عباد الله
خير الله بين الدنيا والآخرة وبين ما عنده . . فاختر ما عند الله)!! .

وسكت الرسول ﷺ من جديد ، والناس كأنما على رؤوسهم
الطير . . ولكن أبا بكر -رضى الله عنه- أدرك أن النبي ﷺ إنما يعنى

بهذه العبارة الأخيرة نفسه، فلم يستطع لركة وجدانه وعظيم صداقته لرسول الله ﷺ أن يمسك عن البكاء فأجهش وقال: بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا! .

وخشى رسول الله ﷺ أن تمتد عدوى التأثر من أبى بكر إلى الناس فأشار إليه قائلاً: (على رسلك!!) ثم قال: (إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه وإنى لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صحبة وإخاء إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده).

ونزل الرسول ﷺ عن المنبر يريد أن يعود بعد ذلك إلى بيت عائشة على أنه لم يلبث أن التفت إلى الناس وقال: (يا معشر المهاجرين: استوصوا بالأنصار خيراً فإن الناس يزيدون والأنصار على هيتها لا تزيد وإن كانوا عيبتى «يعنى خاصتى وموضع سرى» التى أويت إليها فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم).

ودخل رسول الله ﷺ بيت عائشة رضى الله عنها. أى مجهود بذل فى هذا اليوم ؟ . .

إنه الرسول الذى يشغله أكبر الشواغل. جيش «أسامة» . . ومصير الأنصار من بعده. . ومصير هذه الأمة التى ربط الإسلام بأقوى الأواصر وأمتن الروابط بينها. لذلك حاول أن يقوم فى غده ليصلى بالناس إماماً كعادته فإذا هو لا يقدر إذ ذاك قال: (مروا أبا بكر فليصل بالناس). قالت عائشة: إن أبا بكر رجل رقيق ضعيف الصوت كثير البكاء إذا قرأ القرآن قال رسول الله ﷺ: (مروه فليصل بالناس).

فكررت عائشة -رضى الله عنها- وقالت: فلو أمرت عمر؟ فصاح رسول الله ﷺ والمرضى يهزه: إنكن صواحب يوسف: مروه فليصل بالناس، وقام أبو بكر فصلى بالناس إماماً !! .

وبلغت بالرسول ﷺ شدة المرض حداً أله ذلك أن الحمى زادت به حتى لقد كانت عليه قطيفة فإذا وضع أزواجه وعواده أيديهم من فوقها شعروا بحر هذه الحمى المضنية .

وكانت ابنته فاطمة تعود كل يوم وكان يحبها . . ذلك الحب الذى يمتلئ به وجود الرجل للابنة الوحيدة الباقية له من كل عقبه . . . لذلك كانت إذا دخلت على النبی ﷺ قام إليها وقبلها وأجلسها فى مجلسه!! فلما بلغ منه المرض هذا المبلغ : دخلت عليه فقبلته فقال : (مرحباً يا ابنتى . .) ثم أجلسها إلى جانبه وأسر إليها حديثاً فبكت ثم أسر إليها حديثاً آخر فضحكت . . فسألته عائشة فى ذلك ، فقالت : ما كنت أفشى سر رسول الله ﷺ . . فلما مات ذكرت أنه أسر إليها أنه سيقبض فى مرضه هذا فبكت ، ثم أسر إليها أنها أول أهله يلحقه فضحكت!! . وكانوا لا اشتداد الحمى به يضعون إلى جواره إناءً بارداً من ماء بارد ، فما يزال يضع يده فيه ، ويمسح بها على وجهه ﷺ .

وكانت الحمى تصل به حتى يغشى عليه أحياناً ثم يفيق وهو يعانى منها أشد الكرب . . حتى قالت فاطمة يوماً وقد هز الألم نفسها لشدة ألم أبيها . . واكرب أبناه !

فقال : (لا كرب على أبيك بعد اليوم)!

يريد أنه سيتقل من هذا العالم : عالم الأسى والألم إلى الرفيق الأعلى من الجنة .

وتناقل الناس ما بلغ من اشتداد المرض بالنبي ﷺ حتى هبط «أسامة» وهبط الناس معه من (الجرف) إلى المدينة ودخل أسامة على النبي ﷺ فى بيت عائشة -رضى الله عنها- فإذا هو قد أصمت فلا يتكلم ، فلما أبصر أسامة جعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة علامة الدعاء له .

المال الذى تركه النبي ﷺ : وما أثر عنه ﷺ أنه كان فى بيته سبعة

دنائير أول ما اشتد به المرض خاف أن يقبضه الله إليه وما تزال باقية عنده . . فأمر أهله أن يتصدقوا بها . . لكن اشتغالهم بتمريضه والقيام على خدمته واطراد المرض فى شدته أنساهم تنفيذ أمره .

فلما أفاق يوم الأحد الذى سبق وفاته من إغمائه سألهم : ما فعلوا بها؟ فأجابت عائشة : إنها ما تزال عندها فطلب إليها أن تحضرها . ووضعها فى كفه ثم قال : ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه !!؟ ثم تصدق بها جميعاً على فقراء المسلمين . وقضى رسول الله ﷺ ليله هادئاً مطمئناً نزلت عنه الحمى .

وبلغ من ذلك أن استطاع أن يخرج ساعة الصبح إلى المسجد عاصباً رأسه معتمداً على (على بن أبى طالب) و(الفضل بن العباس) -رضى الله عنهما- .

وكان أبو بكر ساعته يصلى بالناس . فلما رأى المسلمون النبى ﷺ وهم فى صلاتهم قد خرج إليهم : كادوا يفتنون فرحاً به فتفرجوا (أى وسعوا) . . فأشار إليهم أن يشبثوا على صلاتهم . وسر رسول الله ﷺ بما رأى من ذلك أكبر سرور واغتبط له أعظم الغبطة .

وأحس أبو بكر -رضى الله عنه- بما صنع الناس وأيقن أنهم لم يفعلوه إلا لرسول الله ﷺ فنكص عن مصلاه يريد أن يتخلى لرسول الله ﷺ عن مكانه . فدفعه الرسول ﷺ وقال له : (صل بالناس) وجلس هو إلى جنب أبى بكر -رضى الله عنه- فصلى قاعداً عن يمينه .

فلما فرغ من صلاته : أقبل على الناس رافعاً صوته حتى سمعه من كان خارج المسجد فقال : (أيها الناس : سعرت النار وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم وإنى والله ما تمسكون على بشىء : إنى والله لم أحل إلا ما أحل القرآن ولا أحرم إلا ما حرم القرآن لعن الله قوماً اتخذوا قبورهم مساجد) .

ولقد عظم فرح المسلمين بما رأوا من مظاهر التقدم فى صحة النبى

ﷺ حتى أقبل عليه أسامة بن زيد يستأذن في مسيرة الجيش إلى الشام حتى مثل بين يديه أبو بكر قائلاً: يا نبي الله إني أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما تحب واليوم يوم (بنت خارجة) يعني زوجته، أفأتيها؟ فأذن له النبي ﷺ في ذلك. وانطلق أبو بكر إلى السنع (مكان بأطراف المدينة) حيث تقيم زوجته وانصرف عمر وعلى لشئونهما، وتفرق المسلمون، وكلهم سعيد مستبشر بعد أن كانوا إلى أمس عابسين مغمومين لما يتصل لهم من أخبار النبي ﷺ ومرضه واشتداد الحمى به وإغمائه.

وعاد هو إلى بيت عائشة والسرور لرؤية هؤلاء المسلمين الذين قد امتلأ بهم المسجد يفعم قلبه وإن كان يحس جسمه ضعيفاً غاية الضعف بينما عائشة تنظر إلى هذا الرجل العظيم الذي يمتلئ قلبها إكباراً له وإجلالاً وقد ملكها الإشفاق لترد إليه القوة والحياة!!.

لكن خروج النبي ﷺ إلى المسجد لم يكن إلا الصبح الذي يسبق الموت.. فقد كان يزداد بعد دخوله إلى البيت في كل لحظة ضعفاً وكان يرى الموت يدنو ولم يبق لديه ريب في أنه لم يبق له في الحياة إلا سويعات.

تقول أرجح الروايات: إنه ﷺ دعا في هذا اليوم القائل من أيام شبه الجزيرة العربية بإناء فيه ماء بارد كان يضع يده فيه ويمسح بمائه وجهه، وإن رجلاً من آل أبي بكر -رضي الله عنه- دخل على عائشة -رضوان الله عليها- وفي يده سواك فنظر إليه رسول الله ﷺ نظراً دل على أنه يريد فأخذته أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- من هذا الرجل ومضغته له حتى لان وأعطته إياه فاستن به.

وإنه لما شق عليه النزاع: توجه إلى الله يدعوه: (اللهم أعني على سكرات الموت)!! قالت عائشة -رضي الله عنها- وكان رأس النبي ﷺ وسلم في هذه الساعة في حجرها: (وجدت رأس رسول الله ﷺ يثقل في حجرى فذهبت أنظر في وجهه فإذا بصره قد شخض وهو يقول:

(بل الرفيق الأعلى من الجنة) قلت: خيرت فاخترت والذي بعثك بالحق!!.

وقبض رسول الله ﷺ:

دفن الرسول ﷺ اختار الرسول ﷺ الرفيق الأعلى، وفوجئ المسلمون بهذا النبأ الأليم وهم بالمسجد فقد رأوه ﷺ في الصباح وكل شيء يدل على أنه عوفى.. مما جعل أبا بكر يذهب إلى زوجته (بنت خارجة) بالسنع! لذلك أسرع عمر -رضي الله عنه- إلى حيث كان جثمان النبي ﷺ وهو لا يصدق أنه مات.. ذهب فكشف عن وجهه ﷺ فألفاه لا حراك به فحسبه في غيبوبة لا بد أن يفيق منها.

وعبثًا حاول (المغيرة بن شعبة) إقناعه بالحقيقة الأليمة.. فقد ظل مؤمنًا بأن رسول الله ﷺ لم يميت فلما ألح (المغيرة) عليه قال له عمر: كذبت!! وخرج معه إلى المسجد وهو يصيح: أن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفي وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران.. فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل إنه مات والله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى عليه السلام فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه قد مات.

واستمع المسلمون بالمسجد إلى هذه الصيحات من جانب عمر -رضي الله عنه- يرسل الواحدة تلو الأخرى، وهم في حال أشبه شيء بالذهول.. ألا إن كان محمد قد مات حقًا فواحر قلباه! وبالله الناصب لأولئك الذين رأوه وسمعوا له وآمنوا بالله الذي بعثه بالهدى ودين الحق.. هم يذهل القلب ويذهب باللب.

أما إن كان محمد قد ذهب إلى ربه كما يقول عمر - فذلك أدعى للذهول.. وانتظار أوبته حتى يرجع كما رجع موسى: أشد إمعانًا في العجب!!.

لذلك أحاطت جموعهم بعمر -رضي الله عنه- وهم أدنى إلى

تصديقه وإلى الإيمان بأن رسول الله ﷺ لم يميت!!
فكيف يموت وقد كان معهم منذ ساعات يروونه ويسمعون إلى صوته
الجمهورى وإلى دعائه واستغفاره؟ وكيف يموت وهو خليل الله الذى
اصطفاه لتبليغ رسالته وقد دانت له العرب كلها وبقي أن يدين له
(كسرى) وأن يدين له (هرقل) بالإسلام!!.

وكيف يموت وهو هذه القوة التى هزت العالم مدى عشرين سنة
متوالية وأحدثت فيه أعنف ثورة روحية عرفها التاريخ.
النساء هناك مازلن يبين علامة أنه مات وعمر -رضى الله عنه-
ههنا بالمسجد ما فتئ ينادى بأنه لم يميت وبأنه ذهب إلى ربه كما ذهب
موسى بن عمران، وبأن الذين يقولون بموته: إنما هم المنافقون... هؤلاء
المنافقون الذين سيضرب محمد ﷺ على أيديهم وأعناقهم بعد رجوعه
!!.

أى الأمرين يصدق المسلمون؟

لقد أخذهم الفرع أول الأمر ثم مازالت بهم أقوال عمر -رضى الله
عنه- تبعث إلى نفوسهم الأمل برجعة النبى ﷺ حتى كادوا يصدقون
أمانهم ويصورون منها لأنفسهم حقائق يكادون يستريحون إليها.
ولأنهم كذلك: إذ أقبل أبو بكر آتياً من (السنح) وقد بلغه الخبر
الفادح وبصر بالمسلمين وبعمر يخطبهم... فلم يقف طويلاً ولم يلتفت
إلى شيء، بل قصد إلى بيت عائشة -رضى الله عنها- فاستأذن فدخل
فألقى النبى ﷺ مسجى فى ناحية من البيت عليه برد حبرة فأقبل حتى
كشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبله وقال: ما أطيبك حياً... وما أطيبك
ميتاً...!!

ثم إنه أخذ رأس النبى ﷺ وسلم بين يديه وحقق فى معارف
وجهه وقال: (بأبى أنت وأمى! أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها
ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً).

ثم أعاد الرأس الشريف إلى الوسادة ورد البرد على وجهه وخرج وعمر ما يزال يكلم الناس ويقنعهم بأن رسول الله ﷺ لم يميت وفسح الناس لأبي بكر -رضي الله عنه- طريقًا . .

فلما دنا من عمر ناداه: على رسلك يا عمر! أنصت! لكن عمر أبى أن يسكت أو ينصت واستمر يتكلم فأقبل أبو بكر -رضي الله عنه- على الناس وأشار إليهم بأنه يكلمهم . . . ومن . . كأبي بكر في هذا المقام؟ . . أليس هو الصديق صفي النبي ﷺ ومن لو اتخذ النبي خليلاً غير ربه لاتخذته خليلاً .

لذلك أسرع الناس إلى تلبية دعوته وانصرفوا إليه عن عمر . . فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

(أيها الناس: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت) . ثم تلا قوله تعالى: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين﴾^(١) . وكان عمر -رضي الله عنه- قد أنصت حين رأى انصراف الناس إلى أبي بكر .

فلما سمع أبا بكر يتلو هذه الآية: خر إلى الأرض . . ما تحمله رجلاه موقناً أن رسول الله ﷺ قد مات . . وأما الناس فقد أخذوا من قبل بأقوال عمر -رضي الله عنه- حتى لقد ألفوا أنفسهم إذ سمعوا هذه الآية يتلوها أبو بكر كأنهم لم يكونوا يعلمون أنها نزلت . . وكذلك رايل القلوب كل شيء في أن محمداً قد اختار جوار الرفيق الأعلى، وأن الله قد قبضه إليه . . أفكان عمر غالياً حين اقتنع بأن محمداً لم يميت وحين دعا الناس إلى مثل اقتناعه؟ . . كلا . .

(١) سورة آل عمران الآية ١٤٤ .

فإن المصاب الفادح والخطب الجسيم قد استولى على جنبات نفسه
وملك عليه فؤاده.. إنه الرجل الذى عاش فى كنف محمد ﷺ وظله..
إنه الرجل الذى كان قبل الإسلام جبار الجاهلية فأصبح بعد الهداية
عملاق الإسلام!

إنه فقد ذلك القلب الكبير الذى أفاض عليه من هدايه وإرشاده
وتوجيهه وتعليمه ما جعل منه (عمر بن الخطاب) الذى وقف يوم الهجرة
بعدهما طاف بالبيت يخاطب الملأ من قريش ويقول:

من أراد أن تشكله أمه أو ييتم ولده أو ترمل زوجه فليتبعنى وراء هذا
الوادى.. فلم يتبعه أحد.. إنه عمر الذى كان لا يطيق مرور نسمة
تؤذى رسول الله ﷺ إلا ويصيح بصوته القوى:
يا رسول الله: مرنى بقتل هذا المنافق!!

فما بالك.. ينظر حواليه: فلا يرى الرسول بجانبه وينظر فوقه
فيرى النجوم قد خر من بينها البدر.

إذن... فلا لوم، لأن عمر قد غشيته غاشية من هول المصاب.
وهكذا لحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى. وقد صدق رب العزة حيث
يقول له: ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد.. أفإن مت فهم الخالدون.
كل نفس ذائقة الموت. ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾^(١).
وقد صدق الله تعالى إذ يقول له:
﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾^(٢).

فيا أخا الإسلام

لا نخلود لأحد على هذه الأرض.
جدد السفينة.. فإن البحر عميق.
وأكثر الزاد.. فإن السفر طويل.

(٢) سورة الزمر الآية ٣٠.

(١) سورة الأنبياء الآيتان [٣٤ ، ٣٥].

وأخلص العمل . . فإن الناقد بصير .
 وخفف الحمل . . فإن العقبة كثود .
 لقد مات خير خلق الله وصفوته من عباده وإنا به لاحقون فأعد
 الزاد لليلة صبحها يوم القيامة .
 لقد انتقل سيد المرسلين صلوات أبى وسلامه عليه إلى دار الحق .
 واعمل للدنيا بقدر مقامك فيها .
 واعمل للآخرة بقدر بقائك فيها .
 واعمل للجنة بقدر اشتياقك إليها .
 واعمل للنار بقدر صبرك عليها .
 واعلم بأن من أراد مؤنسًا : فالله يكفيه .
 ومن أراد حجة فالقرآن يكفيه .
 ومن أراد الغنى فالقناعة تكفيه .
 ومن أراد واعظًا . . فالموت يكفيه .
 ومن لم يكفه شيء من هذا . . فإن النار تكفيه !!

زيارة القبور

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم. إن زلزلة الساعة شيء عظيم. يوم
 ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها
 وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾^(١) .
 اعلم أخى أن القبر أول درجات الآخرة .
 فعندما يموت العبد فإنه يضع قدمه على عتبة اللانهاية . ومن هنا :
 يدخل عالم البرزخ .
 وعالم البرزخ : محيط أعنف من أن يعجز عبابه سبحانه ماهر !!

(١) سورة الحج الآيتان [١ ، ٢] .

قال جل شأنه: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت.. قال رب ارجعون .
لعلى أعمل صالحا فيما تركت . كلا إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم
برزخ إلى يوم يبعثون﴾^(١). والبرزخ هنا: هو الحاجز الزمانى الذى يفصل
ما بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة .

﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم
إليه ترجعون﴾^(٢). هذه الآية الكريمة جمعت الأزمان الثلاثة فى جلال
وجمال . . . جمعت الآزال والآماد والآبادا .

﴿يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث .. فإننا خلقناكم من
تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين
لكم .. ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلا ثم
لتبلغوا أشدكم .. ومنكم من يتوفى .. ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكى
لا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامة .. فإذا أنزلنا عليها الماء
اهتزت، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه
يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن
الله يبعث من فى القبور﴾^(٣).

نداء القبر

أتدرى - يا ابن آدم - ماذا يقول القبر بلسان حاله؟ إنه يناديك
ويخاطبك بكلمات ينفطر لها القلب وينخلع من هولها الفؤاد.
روى عن أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: (خرجنا مع رسول الله
ﷺ فى جنازة ، فجلس إلى قبر منها فقال: ما يأتى على هذا القبر يوم
إلا وهو ينادى بصوت ذلق طلق: يا ابن آدم: نسيتنى ألم تعلم أنى بيت
الوحدة؟ وبيت الغربية؟ وبيت الوحشة؟ وبيت الدود؟ وبيت الضيق؟ إلا

(٢) سورة البقرة الآية ٢٨ .

(١) سورة المؤمنون الآيتان [٩٩ ، ١٠٠].

(٣) سورة الحج الآيات [٥ : ٧].

من وسعنى الله عليه؟ قال رسول الله ﷺ: «القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار» - رواه الطبرانى .

ولقد ركز رسول الله ﷺ تركيزاً قوياً على هذه الحقيقة العليا، وهى ذكر الموت، كما أخبرنا بذلك عبد الله بن عمر -رضى الله عنهما- قال:

أتيت النبى ﷺ عاشر عشرة، فقام رجل من الأنصار فقال: يا نبى الله: من أكيس الناس، وأحزم الناس؟ قال: أكثرهم ذكراً للموت وأكثرهم استعداداً للموت أولئك الأكياس. . ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» - رواه ابن أبى الدنيا.

وفى رواية ابن ماجه، لفظه: «أن رجلاً قال للنبى ﷺ: أى المؤمنين أفضل؟ قال: أحسنهم خلقاً. قال فأى المؤمنين أكيس؟ قال: أكثرهم للموت ذكراً، وأحسنهم لما بعده استعداداً. . أولئك هم الأكياس). ولقد قلت لنفسى وأنا بين المقابر:

هل رأيت الأمن والراحة إلا فى الحفائر؟

فأشارت فإذا للدود عبث فى المحاجر

ثم قالت: أيها السائل إنى لست أدرى

انظرى: كيف تساوى الكل فى هذا المكان

وتلاشى فى نفايا العبد رب الصولجان!

والتقى العاش والغالى. . فما يفترقان!

أفهذا منتهى الأمر؟ فقالت: لست أدرى

أيها القبر تكلم وأخبرينى يا رمام.

هل طوى أحلامك الموت وهل مات الغرام

من هو الميت. . من عام. . ومن مليون عام

أتمنى: أننى أدرى: ولكن لست أدرى.

حكمة زيارة القبور

زيارة القبور مستحبة للرجال :

لما رواه أحمد ومسلم وأصحاب السنن عن عبد الله بن بريدة عن أبيه : أن النبي ﷺ قال : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها . فإنها تذكركم الآخرة» .

وكان النهي ابتداءً ، لأنهم كانوا لا يتورعون فيه عن هجر الكلام وفحشه فلما دخلوا في الإسلام واطمأنوا به وعرفوا أحكامه . . أذن لهم الشارع بزيارتها . وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- : أن النبي ﷺ زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله . فقال النبي ﷺ : «استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي فزوروها فإنها تذكركم الموت» - رواه أحمد ومسلم وأهل السنن إلا الترمذي .

صفة الزيارة الشرعية

إذا وصل الزائر إلى القبر : استقبل وجه الميت وسلم عليه ودعا له . . وقد جاء في ذلك : عن بريدة قال : كان النبي ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقول قائلهم : «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . . أنتم فرطنا ونحن بكم تبع ونسأل الله لنا ولكم العافية» - رواه مسلم وأحمد وغيرهما .
وعن ابن عباس : أن النبي ﷺ مرّ بقبور المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال : «السلام عليكم يا أهل القبور . . يغفر الله لنا ولكم . . أنتم سلفنا ونحن بالآثر» - رواه الترمذي .

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت : «كان النبي ﷺ كلما كان ليلتها يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون ، غداً مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون . . اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد» - رواه مسلم .
وروى عنها قالت : قلت : كيف أقول لهم يا رسول الله ، قال :

«قولى : السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا والمتأخرين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون» .
وأما ما يفعله بعض من لا علم لهم من التمسح بالأضرحه وتقييلها والطواف حولها، فهو من البدع المنكرة التى يجب اجتنابها ويحرم فعلها .
فإن ذلك خاص بالكعبة . زادها الله شرقاً : ولا يقاس عليها قبر نبي ولا ضريح ولى ، الخير كله فى الاتباع والشر كله فى الابتداع .
قال ابن القيم :

كان النبي ﷺ إذا زار القبور يزورها للدعاء لأهلها، والترحم عليهم والاستغفار لهم فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإقسام على الله به وسؤاله الحوائج والاستعانة به والتوجه إليه . . . بعكس هديه ﷺ . . . فإنه هدى توحيد، وإحسان إلى الميت، وهدى هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم وإلى الميت .

وهم ثلاثة أقسام : إما أن يدعوا للميت، أو يدعوا ربه، أو عنده .
ويرون أن الدعاء عنده أولى من الدعاء فى المساجد . ومن تأمل هدى رسول الله ﷺ وأصحابه تبين له الفرق بين الأمرين .

ما ينفع الميت من الأعمال

من المتفق عليه أن الميت يتنفع بما كان سبباً فيه من أعمال البر فى حياته : لما رواه مسلم وأصحاب السنن عن أبى هريرة أن النبي ﷺ قال :
«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد بار يدعو له» - رواه ابن ماجه .

وعنه : أنه ﷺ قال : «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علمه ونشره، أو ولدًا صالحًا تركه، أو مصحفًا ورثه، أو مسجدًا بناء، أو بيتًا لابن السبيل بناء، أو نهرًا أكراه، أو صدقة أخرجها من ماله فى صحته وحياته تلحقه من بعد موته» .

وروى مسلم عن جرير بن عبد الله: أن النبي ﷺ قال: «من سن في الإسلام سنة حسنة: فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم . . ومن سن في الإسلام سنة سيئة: كان عليه وزرها ووزر من يعمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

ما ينفعه من أعمال غيره

- يتساءل العلامة ابن القيم فيقول:
- هل تنتفع أرواح الموتى بشيء من سعى الأحياء . . أم لا؟
- ثم يجيب قائلاً: إنها تنتفع من سعى الأحياء بأمرين مجمع عليهما بين أهل السنة من الفقهاء وأهل الحديث والتفسير.
- أحدهما: ما نسب إلى الميت في حياته.
- والثاني: دعاء المسلمين له واستغفارهم له، والصدقة أو الحج أو يرى الإمام أحمد، ومعه جمهور السلف: وصول الصوم والصلاة، وقراءة القرآن، والذكر.
- وقد نص على هذا: الإمام أحمد في رواية محمد بن يحيى الكحال . . قال:
- قيل لأبي عبد الله: الرجل يعمل الشيء من الخير: من صلاة أو صدقة، أو غير ذلك، فيجعل نصفه لأبيه أو لأمه؟
- قال: (الميت يصل إليه كل شيء: من صدقة أو غيره) وقال أيضاً:
- اقرأ آية الكرسي ثلاث مرات و«قل هو الله أحد» وقل: اللهم إن فضله لأهل المقابر.
- وهناك آراء أخرى في هذه المسألة، رأينا الإمساك عن ذكرها . .
- تيسيراً على القارئ.

الأدلة على ما سبق

الدليل على انتفاعه بما نسب إليه في حياته: ما رواه مسلم في

صحيحه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له». فاستثناء هذه الثلاث من عمله: يدل على أنها منه، فإنه هو الذي تسبب فيها.

وفي سنن ابن ماجه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ «إنما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علما علمه ونشره أو ولدا صالحا تركه أو مصحفا ورثه أو مسجداً بناه أو بيتاً لابن السبيل بناه أو نهراً أكراه أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته».

وفي المسند عن حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم . . . ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من يعمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

وقد دل على هذا: قوله ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل» فإذا كان هذا في العذاب والعقاب، ففي الفضل والثواب أولى وأحرى.

ومن الأدلة كذلك: ما نطق به القرآن الكريم وأتت به السنة المطهرة ورآه الإجماع.

أما القرآن:

فقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾^(١). فأثنى الله سبحانه وتعالى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء: إجماع الأمة على الدعاء له في صلاة الجنازة.

(١) سورة الحشر الآية ١٠.

وفى السنن:

من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».

وفى صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك قام النبى ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: «اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله وأوسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلاً خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار».

وفى السنن أيضاً عن وائلة بن الأسقع قام ﷺ على رجل من المسلمين فسمعه يقول: اللهم إن فلان بن فلان فى ذمتك وحبل جوارك، فقه من فتنة القبر وعذاب النار، وأنت أهل الوفاء والحق فاغفر له وارحمه إنك أنت الغفور الرحيم».

ومن حديث عثمان بن عفان -رضى الله عنه- قال: كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل». وكذلك الدعاء لهم عند زيارة قبورهم كما فى صحيح مسلم من حديث بريدة بن الحصين قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون.. نسأل الله لنا ولكم العافية».

وفى صحيح مسلم أن عائشة -رضى الله عنها- سألت النبى ﷺ كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور؟ قال: قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، فيرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم للاحقون» وفى صحيح مسلم أيضاً عنها -رضوان الله عليها- أن رسول الله ﷺ خرج فى ليلتها من آخر الليل إلى البقيع

فقال: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل الغرق». وقد جاء أن الله يرفع درجة العبد في الجنة فيقول: أنى لى هذا؟ فيقال: بدعاء ولدك لك.

وصول ثواب الصدقة

عقد العلامة ابن القيم -رحمه الله تعالى- فصلاً في ذلك فقال: وأما وصول ثواب الصدقة: ففي الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها- أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمى افلتت نفسها ولم توصى وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجر إن تصدقت عنها؟ قال: «نعم».

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- أن سعد بن عبادة توفيت أمه وهو غائب عنها فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمى توفيت وأنا غائب عنها فهل ينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم. قال: فإنى أشهدك أن حائطى المخراف صدقة عنها.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- «أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إن أبى مات وترك مالاً، ولم يوص فهل يكفى عنه أن أتصدق عنه؟ قال: نعم».

وفي السنن ومسنند أحمد عن سعد بن عبادة أنه قال: «يا رسول الله إن أم سعد ماتت فأى الصدقة أفضل؟ قال: الماء». فحفر بئراً وقال: هذه لأم سعد.

وعن عبد الله بن عمرو أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر خمساً وخمسين، وأن عمرًا سأل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «أما أبوك فلو أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك» - رواه الإمام أحمد.

وصول ثواب الصيام

قال العلامة ابن القيم رحمة الله عليه :

وأما الدليل على وصول ثواب الصوم إلى الميت فما روى في الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وعليه صيام: صام عنه وليه».

وفي الصحيحين أيضاً عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: أمتي ماتت وعليها صوم شهر.. أفأقضيه عنها؟ قال: نعم.. فدين الله أحق أن يقضى».

وفي رواية: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله: إن أمتي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: أفرايت لو كان على أمك دين فقبضته: أكان يؤدي ذلك عنها. قالت: نعم، قال فصومي عن أمك».

وهذا اللفظ للبخاري وحده تعليقا.

وعن بريدة -رضي الله عنه- قال: بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ إذ أتته امرأة فقالت: إني تصدقت على أمتي بجارية، وإنها ماتت فقال: وجب أجرك وردها عليك الميراث فقالت: يا رسول الله إنه كان عليها صوم شهر أفأصوم عنها؟ قال: صومي عنها قالت: إنها لم تحج قط أفأحج عنها؟ قال: حجي عنها» رواه مسلم.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- «أن امرأة ركبت البحر فنذرت إن الله نجاها أن تصوم شهرا فنجأها الله، فلم تصم حتى ماتت فجاءت بنتها أو أختها إلى رسول الله ﷺ فأمرها أن تصوم عنها» - رواه أهل السنن والإمام أحمد.

وكذلك روى عنه ﷺ وصول ثواب بدل الصوم وهو الإطعام: ففي السنن: عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ «من مات وعليه صيام شهر فليطعم عنه لكل يوم مسكين» - رواه الترمذي.

قال الترمذى: ولا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، والصحيح عن ابن عمر من قوله موقوفاً.

وفى سنن أبى دواد عن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «إذا مرض الرجل فى رمضان ولم يصم أطعم عنه ولم يكن عنه قضاء وإن نذر: قضى عنه وليه».

وصول ثواب الحج

قال العلامة ابن القيم رحمة الله عليه:

وأما وصول ثواب الحج: ففى صحيح البخارى عن ابن عباس -رضى الله عنهما- «أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: إن أمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها. أرايت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله فالله أحق بالقضاء».

وقد تقدم حديث بريدة وفيه: «إن أمى لم تحج قط، أفأحج عنها؟ قال: حجى عنها».

وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: «إن امرأة سنان بن مسلمة الجهنى سألت رسول الله ﷺ أن أمها ماتت ولم تحج أفيجزئ أن تحج عنها؟ قال: نعم. لو كان على أمها دين فقضته عنها ألم يكن يجزئ عنها» رواه النسائى.

وروى أيضاً عن ابن عباس -رضى الله عنهما- أن «امرأة سألت النبى ﷺ عن ابنها مات ولم يحج قال: (حجى عن ابنك).

وروى أيضاً عنه قال: «قال رجل يا نبى الله إن أبى مات ولم يحج أفأحج عنه؟ قال: أرايت لو كان على أهلك دين أكنت قاضيه؟ قال: نعم قال: فدين الله أحق».

وأجمع المسلمون على أن قضاء الدين يسقطه من ذمته، ولو كان من أجنبى أو من غير تركته.

وقد دل عليه حديث أبي قتادة حيث ضمن الدينارين عن الميت فلما قضاها قال له النبي ﷺ الآن بردت عليه جلده» .

سؤال القبر

اتفق أهل السنة والجماعة: على أن كل إنسان يسأل بعد موته: قبر أم لم يقبر . .

فلو أكلته السباع أو أحرق حتى صار رماداً ونسف في الهواء أو غرق في البحر: ليسئل عن أعماله وجورى بالخير: خيراً، وبالشر: شراً.

وأن النعيم أو العذاب على النفس والبدن معاً . . قال ابن القيم: ذهب سلف الأمة وأئمتها إلى أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب وإن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحياناً ويحصل له معها النعيم أو العذاب. ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى: أعيدت الأرواح إلى الأجساد وقاموا من قبورهم لرب العالمين وتعاد الأبدان» متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى وقال المروزي: قال أبو عبد الله - يعني الإمام أحمد - عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل.

وقال حنبل: قلت لأبي عبد الله: في عذاب القبر؟

فقال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها . . كلما جاء عن النبي ﷺ إسناد جيد أقررنا به إذا لم نقر بما جاء به رسول الله ﷺ ودفعناه ورددناه: رددنا على الله أمره . . قال تعالى ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه﴾^(١).

قلت له: وعذاب القبر حق؟ قال: حق . . . يعذبون في القبور.
قال: وسمعت أبا عبد الله يقول: نؤمن بعذاب القبر وبمنكر ونكير

. (١) سورة الحشر الآية ٧.

وأن العبد يسأل في قبره . . . قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(١) . . . في القبر.

وقال أحمد بن القاسم: قلت: يا أبا عبد الله: تقر بمنكر ونكير وما يروى في عذاب القبر؟ فقال: سبحان الله . . نعم . . نقر بذلك ونقر له .

قلت: هذه اللفظة تقول: منكر ونكير هكذا؟ أو تقول: ملكين؟ قال: منكر ونكير.

قلت يقولون: ليس في حديث منكر ونكير.

قال: هو هكذا يعنى أنهما منكر ونكير.

ثم يطرح العلامة ابن القيم في هذه القضية سؤالاً يقول فيه:

هل تعاد الروح إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا؟

ويجيب قائلا: فقد كفانا رسول الله ﷺ أمر هذه المسألة وأغنانا عن

أقوال الناس حيث صرح بإعادة الروح إليه: فقد قال البراء بن عازب.

كنا في جنازة في بقيع الخرق قد فاتنا النبي ﷺ فقعد وقعدنا حوله

كأن على رؤوسنا الطير، وهو يلحد له فقال: «أعوذ بالله من عذاب القبر

ثلاث مرات ثم قال: «إن العبد إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطاع من

الدنيا: نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر

ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة:

أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة

من (فى) السقاء - أى فمه - فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده

طرفه عين حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وذلك الحنوط،

ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال:

فيصعدون بها فلا يمرون بها - يعنى على ملأ من الملائكة - إلا قالوا: ما

هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان - بأحسن أسمائه التى كانوا

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧.

يسمونه فى الدنيا حتى يتتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعة من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها حتى يتتهى بها إلى السماء التى فيها الله تعالى فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدى فى عليين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم ومنها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى.

قال: فتعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول ربي الله فيقولان له ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله فيقولان له: وما علمك بهذا؟ فيقول: قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت. فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى فأفرشوه من الجنة وافتحوا له باباً من الجنة.

قال: فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له فى قبره مد بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول: أبشر بالذى يسرك . . هذا يومك الذى كنت توعد فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه الذى يجرىء بالخير فيقول: أنا عمك الصالح فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى، قال: وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة: نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجرىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة: اخرجى إلى سخط من الله وغضب. . .

قال: فيتفرق فى جسده فينتزعها كما ينتزع السنود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ويخرج منها كأتان ريح جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الريح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى

الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط﴾^(١).

فيقول الله عز وجل «اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى» فتطرح روحه طرحاً ثم قرأ ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق﴾^(٢).

فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيقولان له: من ربك؟ فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فينادي مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول: أبشر بالذي يسؤك هذا يومك الذي كنت توعده.

فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر فيقول: أنا عمك الخبيث فيقول: رب لا تقم الساعة»
رواه الإمام أحمد وأبو داود.

اللهم أجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

نصوص نبوية صحيحة

وهذه مجموعة من الأحاديث النبوية الصحيحة نستشهد بها على صحة ما ذكرناه:

روى مسلم عن زيد بن ثابت قال: بينا رسول الله ﷺ في حائط (الحائط هو البستان) لبنى النجار على بغلته ونحن معه إذ جادت به فكادت تلقيه، فإذا قبر ستة أو خمسة أو أربعة . . فقال: من يعرف أصحاب هذه القبور؟ فقال رجل: أنا. قال: فمتى مات هؤلاء؟ قال:

(١) سورة الأعراف الآية ٤٠. (٢) سورة الحج الآية ٣١.

مات في الأشراط. فقال: إن هذه الأمة تبتلى في قبورها... فلولا أن لا تدافنوا: لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر: الذي أسمع منه. ثم أقبل علينا بوجهه فقال: تعوذوا بالله من عذاب النار. قالوا نعوذ بالله من عذاب النار. قال: تعوذوا بالله من عذاب القبر. قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قالوا: نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن. قال: تعوذوا بالله من فتنة الدجال قالوا: نعوذ بالله من فتنة الدجال.

وروى البخاري ومسلم عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ قال: إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع نعالهم: أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد ﷺ. فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله.

قال: فيقولان: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة... فيراهما جميعاً.

وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقولان: لا دريت ولا تليت... ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة فيسمعها من يليه غير الثقلين. (ومعنى لا دريت... ولا تليت): أى لا كنت دارياً ولا تالياً... والمقصود بها الدعاء عليه).

وروى البخاري ومسلم وأصحاب السنن عن البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم إذا سئل في قبره فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: فذلك قول الله ﷻ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة»^(١).

وفي لفظ: نزلت في عذاب القبر: يقال له من ربك؟ فيقول: الله ربي ومحمد نبي فذلك قول الله ﷻ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة»^(١).

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧.

وفى مسند الإمام أحمد وصحيح أبي حاتم أن النبي ﷺ قال :
«إن الميت إذا وضع فى قبره : إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون
عنه فإن كان مؤمناً كانت الصلاة عند رأسه والصيام عن يمينه والزكاة عن
شماله وكان فعل الخيرات «من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان» عند
رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة : ما قبلى مدخل ثم يؤتى من
يمينه فيقول الصيام : ما قبلى مدخل . ثم يؤتى من يساره فتقول الزكاة : ما
قبلى مدخل . ثم يؤتى من قبل رجله فيقول فعل الخيرات من الصدقة
والصلة والمعروف والإحسان : ما قبلى مدخل . فيقال : له اجلس .
فيجلس وقد مثلت له الشمس وقد أخذت للغروب فيقال له : هذا الرجل
الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وماذا تشهد به عليه؟ فيقول؟ دعونى حتى
أصلى فيقولان : إنك ستصلى أخبرنا عما نسألك عنه؟ أرايتك هذا الرجل
الذى كان فيكم ما تقول فيه؟ وما تشهد عليه؟ فيقول : محمد أشهد أنه
رسول الله جاء بالحق من عند الله فيقولان له : على ذلك حييت وعلى
ذلك مت وعلى ذلك تبعث إن شاء الله ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال
له : هذا مقعدك وما أعد الله لك فيها فيزداد غبطة وسرورا ثم يفسح له
فى قبره سبعون ذراعاً وينور له فيه ويعاد الجسد لما بدئ منه وتجعل نسمة
فى النسيم الطيب وهى طير معلق فى شجر الجنة . . قال : فذلك قول الله
تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي
الْآخِرَةِ﴾^(١) . . وذكر فى الكافر ضد ذلك إلى أن قال :

«ثم يضيق عليه فى قبره إلى أن تختلف أضلأعه فتلك المعيشة
الضنك التى قال الله تعالى : ﴿فَإِنْ لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
أَعْمَى﴾^(٢) .

وفى صحيح البخارى عن سمرة بن جندب قال : «كان النبي ﷺ

(٢) سورة طه الآية ١٢٤ .

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧ .

إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا؟ قال: فإن رأى أحد رؤيا قصصها فيقول: ما شاء الله... فسألنا يوماً فقال: هل رأى أحد منكم رؤيا؟ قلنا: لا. قال: لكنى رأيت الليلة رجلين أتياني فأخذا بيدي وأخرجاني إلى الأرض المقدسة فإذا رجل جالس ورجل قائم بيده كlob من حديد يدخله فى شدقه حتى يبلغ قفاه ثم يفعل بشدقه الآخر مثل ذلك ويلتئم شدقه هذا فيعود فيصنع مثله قلت ما هذا؟ قالاً: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بصخرة أو فهر فيشدخ بها رأسه فإذا ضربه تدهده الحجر فانطلق إليه ليأخذ فلا يرجع إلى هذا حتى يلتئم رأسه وعاد رأسه كما هو فعاد إليه فضربه قلت: ما هذا؟ قالاً: انطلق فانطلقنا إلى نقب مثل التنور أعلاه ضيق وأسفله واسع يوحد تحته نار فإذا فيه رجال ونساء عراة فيأتيهم اللهب من تحتهم فإذا اقترب: ارتفعوا حتى كادوا يخرجون فإذا خمدت: رجعوا فقلت: ما هذا؟ قالاً: انطلق فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل بين يديه حجارة فأقبل الرجل الذى فى النهر فإذا أراد أن يخرج رمى الرجل بحجر فى فيه (أى فمه) فردده حيث كان فجعل كلما جاء ليخرج: رمى فى فيه بحجر فرجع كما كان فقلت ما هذا؟ قالاً: انطلق فانطلقنا حتى أتينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة وفى أصلها شيخ وصبيان وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار يوقدها فصعدا إلى الشجرة وأدخلانى داراً لم أر قط أحسن منها... فيها شيوخ وشبان ثم صعدا بى فأدخلانى داراً هى أحسن وأفضل قلت: طوفتمانى الليلة فأخبرانى عما رأيته؟ قالاً: نعم: الذى رأيته يشق شدقه: كذاب يحدث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة. والذى رأيته يشدخ رأسه فرجل علمه الله القرآن فنام عنه بالليل ولم يعمل به بالنهار يفعل به إلى يوم القيامة. وأما الذى رأيته فى النقب: فهم الزناة. والذى رأيته فى النهر: فأكل الربا. فأما الشيخ الذى فى أصل الشجرة: فأبراهيم والصبيان حوله: فأولاد الناس.

والذى يوقد النار: فمالك خازن النار.
والدار الأولى: دار عامة المؤمنين . وأما هذه الدار فدار الشهداء . .
وأنا جبريل وهذا ميكائيل فارفع رأسك . . فرفعت رأسى فإذا قصر مثل
السحابة قالاً: ذلك منزلك قلت: دعانى أدخل منزلى . قالاً: إنه بقى
لك عمر لم تستكمله فلو استكملته: أتيت منزلك»
قال ابن القيم: وهذا نص فى عذاب البرزخ فإن رؤيا الأنبياء وحى
ومطابق لما فى نفس الأمر .

وروى الطحاوى عن ابن مسعود أن النبى ﷺ قال: «أمر بعبد من
عباد الله أن يضرب فى قبره مائة جلدة فلم يزل يسأل الله ويدعوه حتى
صارت واحدة فامتلاً قبره عليه ناراً فلما ارتفع عنه أفاق . قال: علام
جلدتمونى؟ قالوا: إنك صليت بغير طهور، ومررت على مظلوم فلم
تنصره» وعن أنس أن النبى ﷺ سمع صوتاً من قبر فقال:
متى مات هذا؟ فقالوا: مات فى الجاهلية فسر بذلك وقال: «لولا
أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم عذاب القبر» رواه النسائى ومسلم .
وعن ابن عمر -رضى الله عنهما- عن النبى ﷺ قال: «هذا الذى
تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السماء، وشهده سبعون ألفاً من
الملائكة . . . لقد ضم ضمة ثم فرج عنه» - رواه البخارى ومسلم
والنسائى .

﴿تعليق﴾

إذا سأل سائل ما الحكمة فى كون عذاب القبر لم يذكر فى القرآن
مع شدة الحاجة إلى معرفته والإيمان به ليحذر ويتقى؟
أجاب على ذلك العلامة ابن القيم فقال: الجواب من وجهين:
مجمل ومفصل .

أما المجمل: فهو أن الله سبحانه وتعالى أنزل على رسوله وحين
وأوجب على عباده الإيمان بهما والعمل بما فيهما، وهما: الكتاب
والحكمة . .

قال تعالى: ﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم﴾^(١)

قال تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾^(٢). وقال تعالى: ﴿واذكرون ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة﴾^(٣).

والكتاب: هو القرآن.

والحكمة: هي السنة باتفاق السلف.

وما أخبر به الرسول عن الله: فهو في وجوب تصديقه والإيمان به.. كما أخبر به الرب تعالى على لسان رسوله..

هذا أصل متفق عليه بين أهل الإسلام لا ينكره إلا من ليس منهم. وقد قال النبي ﷺ «إني أوتيت الكتاب ومثله معه».

وأما الجواب المفصل: فهو أن نعيم البرزخ وعذابه مذكوران في القرآن في غير موضع.. فمنها قوله تعالى ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم.. اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾^(٤).

وهذا خطاب لهم عند الموت.

وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: اليوم تجزون ومنها قوله تعالى: ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب. النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾^(٥).

(١) سورة النساء الآية ١١٣. (٢) سورة الجمعة الآية ٢.

(٣) سورة الأحزاب الآية ٣٤. (٤) سورة الأنعام الآية ٢.

(٥) سورة غافر الآيات [٤٥ ، ٤٦].

فذكر عذاب الدارين ذكراً صريحاً . . لا يحتمل الشك . ومنها قوله تعالى : ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون وإن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ (١) .

وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر ، لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا .

وقد يقال وهو أظهر أن من مات منهم . . عذب في البرزخ ومن بقى منهم . . عذب في الدنيا بالقتل وغيره فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ . ومنها قوله تعالى : ﴿ ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون ﴾ (٢) .

وقد احتج بهذه الآية جماعة منهم عبدالله بن عباس على عذاب القبر . وفي الاحتجاج بها شيء ؛ لأن هذا عذاب الدنيا يستدعى به رجوعهم عن الكفر ولم يكن هذا مما يخفى على حبر الأمة وترجمان القرآن .

لكن من فقهه في القرآن ودقة فهمه فيه : فهم منها عذاب القبر . . فإنه سبحانه أخبر أن له فيهم عذابين : أدنى وأكبر . فأخبر أن يذيقهم بعض « الأدنى » ليرجعوا . . فدلّ على أنه بقى لهم من الأدنى بقية يعذبون بها بعد عذاب الدنيا ولهذا قال : « من العذاب الأدنى » ولم يقل « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى » .

فلنتأمل ذلك جيداً . . ونظيره قول النبي ﷺ : « فيفتح له طاقة إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها » ولم يقل : فيأتيه حرها وسمومها فإن الذي وصل إليه : بعض ذلك وبقى له أكثره . . والذي ذاقه أعداء الله في

(١) سورة الطور الآيات [٤٥ : ٤٧]

(٢) سورة السجدة الآية ٢١ .

الدنيا بعض العذاب وبقي لهم: ما هو أعظم.
ومنها قوله تعالى: ﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم، وأنتم حينئذ تنظرون،
ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون، فلولا إن كنتم غير مدينين،
ترجعونها إن كنتم صادقين، فأما إن كان من المقربين، فروح وريحان
وجنة نعيم، وأما إن من كان أصحاب اليمين، فسلام لك من أصحاب
اليمين، وأما إن كان من المكذبين الضالين، فنزل من حميم، وتصلية
جحيم، إن هذا لهو حق اليقين، فسبح باسم ربك العظيم﴾^(١)

فذكر ههنا: أحكام الأرواح عن الموت وذكر في أول السورة:
أحكامها يوم المعاد الأكبر. وتقديم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية...
إذ هي أهم وأولى بالذكر وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام كما جعلهم في
الآخرة ثلاثة أقسام. ومنها قوله تعالى: ﴿يا أيها النفس المطمئنة، ارجعي
إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي، وادخلي جنتي﴾^(٢)...

وقد اختلف السلف: متى يقال لها ذلك؟

فقالت طائفة: يقال لها عند الموت، وظاهر اللفظ: مع هؤلاء فإنه
خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن وخرجت منه.

وقد فسر ذلك النبي ﷺ بقوله في حديث البراء وغيره فيقال لها:
(اخرجي راضية مرضياً عنك) وقوله تعالى: ﴿فادخلي في عبادي﴾
مطابق لقوله ﷺ «اللهم الرفيق الأعلى». وأنت إذا تأملت أحاديث
عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلاً وتفسيراً لما دل عليه القرآن.

أسباب عذاب القبر

قال العلامة ابن القيم:

ذلك راجع إلى سببين:

مجمل ومفصل:

(١) سورة الواقعة الآيات [٨٣ : ٩٦].

(٢) سورة الفجر الآيات [٢٧ : ٣٠].

أما المجمل فإنهم يعذبون على جهلهم بالله وإضاعتهم لأمره وارتكابهم لمعاصيه فلا يعذب الله روحا عرفتة وأحبته وأمثلت أمره واجتنبت نهيه ولا بدنا كانت فيه أبدا فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة: أثر غضب الله وسخطه على عبده فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك. كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه: فمستقل ومستكثر ومصداق ومكذب.

وأما المفصل: فقد أخبر النبي ﷺ عن الرجلين اللذين رأهما يعذبان في قبورهما يمشى أحدهما بالنميمة بين الناس ويترك الآخر الاستبراء من البول.

فهذا ترك الطهارة الواجبة، وذلك ارتكب السبب الموقع للعداوة بين الناس بلسانه وإن كان صادقا وفي هذا تنبيه على أن الموقع بينهم العداوة: بالكذب والزور والبهتان: أعظم عذاباً كما أن في ترك الاستبراء من البول تنبيه على أن من ترك الصلاة التي الاستبراء من البول بعض واجباتها وشروطها فهو أشد عذاباً وفي حديث شعبة (أما أحدهما: فكان يأكل لحوم الناس فهذا مغتاب وذلك نمام).

وقد تقدم حديث ابن مسعود -رضي الله عنه- في الذي ضرب سوطاً امتلاً القبر عليه به ناراً لكونه صلى صلاة واحدة بغير طهور ومر على مظلوم فلم ينصره، وقد جاء في صحيح البخاري عن سمرة بن جندب قال: (كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: من رأى منكم الليلة رؤيا...؟ والحديث: مذكور بطوله فيما مضى فليرجع إليه من شاء ومما سبق يتبين أن عذاب القبر يكون عن معاصي القلب والعين والأذن والفم واللسان والبطن والفرج واليد والرجل والبدن كله: فالنمام والكذاب والمغتاب وشاهد الزور وقاذف المحصن والموضع في الفتنة والداعى إلى البدعة والقائل على الله ورسوله ما لا علم له به والمجازف في كلامه وآكل الربا وآخذه ومعطيه وكاتبه وشاهده وآكل أموال اليتامى وآكل السحت من الرشوة والبرطيل (الرشوة) ونموهما وآكل

مال أخيه المسلم بغير حق أو مال المعاهد وشارب المسكر وأكل لقمة الشجرة الملعونة والزانى واللوطى والسارق والخائن والغادر والمخادع والماكر والمحلل والمحلل له والمحتال على إسقاط فرائض الله وارتكاب محارمه ومؤذى المسلمين ومتتبع عوراتهم والحاكم بغير ما أنزل الله والمفتى بغير ما شرعه الله والمعين على الإثم والعدوان وقاتل النفس التى حرم الله والملحد فى حرم الله والمعطل لحقائق أسماء الله وصفاته الملحد فيها والمقدم رأيه وذوقه وسياسته على سنة رسول الله ﷺ والنائحة والمستمع إليها ونواحو جهنم وهم المغنون الغناء الذى حرمه الله ورسوله والمستمع إليهم والذين يبنون المساجد على القبور ويوقدون عليها القناديل والسرّج والمطففون فى استيفاء مالهم إذا أخذوه وهضم ما عليهم إذا بذلوه والجبارون والمتكبرون والمراؤون والهمارون واللمارون والطاعنون على السلف والذين يأتون الكهنة والمنجمين والعرافين فيسألونهم ويصدقونهم وأعوان الظلمة الذين قد باعوا آخرتهم بدنيا غيرهم والذى إذا خوفته بالله وذكرته به لم يرعو ولم ينزجر فإذا خوفته بمخلوق مثله: خاف وأرعوى وكف عما هو فيه والذى يهدى بكلام الله ورسوله فلا يهتدى ولا يرفع به رأساً فإذا بلغه عمن يحسن به الظن ممن يصيب ويخطئ: عض عليه بالنواجذ ولم يخالفه والذى يقرأ عليه القرآن فلا يؤثر فيه وربما استثقل به فإذا سمع قرآن الشيطان ورقية الزنا ومادة النفاق: طاب سره وتواجد وهاج من قلبه دواعي الطرب وود أن المغنى لا يسكت والذى يحلف بالله ويكذب فإذا حلف بالبندق أو برئ من شيخه أو قريبه أو سراويل الفتوة أو حياة من يحبه ويعظمه من المخلوقين: لم يكذب ولو هدد وعوقب والذى يفتخر بالمعصية ويتكثر بها بين إخوانه وإضرابه - وهو المجاهر والذى لا تأمنه على مالك وحرمتك - والفاحش اللسان البذى الذى تركه الخلق لقاء شره وفحشه والذى يؤخر الصلاة إلى آخر وقتها وينقرها نقرأ ولا يذكر الله فيها إلا قليلاً ولا يؤدى زكاة ماله طيبة بها نفسه ولا يحج مع قدرته على الحج ولا يؤدى ما عليه من الحقوق مع قدرته عليها

ولا يتورع من لحظة ولا لفظة ولا أكلة ولا خطوة ولا يبالي بما حصل من المال من حلال أو حرام ولا يصل رحمه ولا يرحم المسكين ولا الأرملة ولا اليتيم ولا الحيوان البهيم بل يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين ويرأى العالمين ويمنع الماعون ويتشغل بعيوب الناس عن عيبه ويذنبهم عن ذنبه .

كل هؤلاء وأمثالهم : يعذبون في قبورهم بهذه الجرائم بحسب كثرتها وقلتها وصغيرها وكبيرها .
ولما كان أكثر الناس كذلك : كان أكثر أصحاب القبور معذبين والفائز منهم قليل .

فظواهر القبور : تراب وبواطنها حسرات وعذاب ظواهرها بالتراب والحجارة المنقوشة مبینات وفي باطنها الدواهي والبليات .
تغلى بالحسرات كما تغلى القدور بما فيها ويحق لها وقد حيل بينها وبين شهواتها وأمانيتها . تالله لقد وعظت فما تركت لواعظ مقالا ونادت :
يا عمار الدنيا : لقد عمرتم داراً موشكة بكم زوالاً .
وخربتم داراً أنتم مسرعون إليها انتقالاً .
عمرتم بيوتاً لغيركم : منافعها وسكنائها .
وخربتم بيوتاً ليس لكم مساكن سواها .
هذه دار الاستباق ومستودع الأعمال ويذر الزرع وهذه محل للعبر :
رياض من رياض الجنة أو حفر من حفر النار !

فضل القرآن ومدارسته

اعلم - وفقني الله وإياك - أن حرص العبد في الدنيا على قراءة القرآن ومدارسته وحفظه وتلاوته : خير ما ينور له قبره ويفسح له فيه .
يقول الإمام الشاطبي رحمه الله في هذا المعنى :
وخير جليس لا يمل حديثه
ترداده يزداد فيه تجملاً

وحيث الفتى يرتاع فى ظلماته
من القبر يلقاه سنا متهللا
هنالك يهنيه مقبلا وروضه
ومن أجله فى ذروة العز يجتلى
يناشد فى إرضائه لحبيبه
وأجدر به سؤلا إليه موصلا
فيا أيها القارى به متمسكا
مجلا له فى كل حال مبجلا
هنيئا مريئا والداك عليهم
ملابس أنوار من التاج والحلى
يرحم الشاطبي وجزاه الله عن القرآن خيرا.

فضل القرآن وحافظ القرآن

وها نحن أولاً: نذكر نصوصاً تبين لنا فضل القرآن على أصحابه
العاملين به المستمسكين بهديه السالكين على منهجه السائرين على دربه .
قال الله تبارك وتعالى: ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن
العظيم﴾^(١).

وقال جل شأنه: ﴿بل هو قرآن مجيد﴾^(٢) .
وقال سبحانه وتعالى: ﴿وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين
يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾^(٣) .
وصح عن النبي ﷺ أنه حدث عن جبريل عليه السلام عن الله
تبارك وتعالى أنه قال: (من شغله قراءة كتابي عن مسألتى: أعطيته أفضل

(٢) سورة البروج الآية ٢١ .

(١) سورة الحجر الآية ٨٧ .

(٣) سورة فصلت الآيتان [٤١ ، ٤٢] .

ما أعطى الشاكرين) وفى رواية أخرى (السائلين).
وعن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن لله أهلين من الناس فقليل:
من هم يا رسول الله؟
قال: أهل القرآن. هم أهل الله وخاصته»
وعن ابن عباس -رضى الله عنهما- يرفعه: (أشراف أمتي: حملة
القرآن وأصحاب الليل).
وعنه أيضاً يرفعه:
(من أعطى القرآن فظن أن أحداً أعطى أفضل مما أعطى: فقد عظم
ما حقر الله وحقر ما عظم الله) وقال: (من أوتى القرآن: فكأنما أدرجت
النبوة بين جنبيه إلا أنه لم يوح إليه).
وسئل النبي ﷺ: من أفضل الناس؟ فقال: «الحال المرتحل قيل:
ومن الحال المرتحل؟ قال: صاحب القرآن.. كلما حل ارتحل: أى كلما
أتم ختمة: استأنف ختمة أخرى».
وعن على -رضى الله عنه- قال: (ذكر لرسول الله ﷺ الفتنة ..
قلنا يا رسول الله: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله: فيه نبأ ما قبلكم
وفصل ما بينكم وخبر ما بعدكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من
جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله
المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تلتبس له
الالسن ولا يزيغ به الأهواء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشيع منه
العلماء، ولا تنقضى عجائبه، هو الذى لم يلبث الجن إذ سمعته أن
قالوا: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾^(١). من قال به: صدق ومن حكم به
عدل ومن اعتصم به هدى إلى صراط مستقيم.

وعن ابن مسعود -رضى الله عنه- عن النبي ﷺ أنه قال: «إن هذا
القرآن مآدبة الله فى أرضه فتعلموا مآدبته ما استطعتم وإن هذا القرآن هو

(١) سورة الجن الآية ١.

حبلى الله فهو نوره المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن تبعه لا يعوج فيقوم ولا يزيغ فيستعجب ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق عن كثرة الرد فاقراءوه فإن الله يأجركم بكل حرف عشر حسنات أما إنى لا أقول: ألم عشر ولكن ألف ولام وميم ثلاثون حسنة) .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال: «فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه» .

وعن أبى الدرداء -رضى الله عنه- يرفعه إلى النبى ﷺ أنه قال: «القرآن أفضل من كل شىء دون الله فمن قرأ القرآن: فقد قرأ الله ومن لم يقر القرآن، فقد استخف بحرمة الله، حرمة القرآن على الله كحرمة الوالد على ولده» .

وعن أبى أمامة أن النبى ﷺ قال: «من قرأ ثلث القرآن فقد أوتى ثلث النبوة، ومن قرأ نصف القرآن أوتى نصف النبوة، ومن قرأ ثلثى القرآن أوتى ثلثى النبوة ومن قرأ القرآن كله أوتى النبوة كلها، ثم يقال له يوم القيامة: اقرأ وارق بكل آية درجة حتى يتبخر ما معه من القرآن ثم يقال له: اقبط فيقبض فيقال: هل تدرى ما فى يدك؟ فإذا فى اليمنى الخلد وفى الأخرى النعيم» .

وعن عائشة -رضى الله عنها- عن النبى ﷺ أنه قال: «حملة القرآن محبتون برحمة الله الملبسون نور الله المعلمون كلام الله فمن عاداهم فقد عادى الله ومن والاهم فقد والى الله» .

يقول الله عز وجل: «يا حملة كتاب الله تحببوا إلى الله بتوقيع كتابه يزدكم حباً ويحببكم إلى خلقه يدفع عن مستمع القرآن شر الدنيا ويدفع عن تالى القرآن بلوى الآخرة» .

ولستمع آية من كتاب الله خير من ثبير ذهباً ولتالى آية من كتاب الله خير مما تحت العرش إلى تخوم الأرض السفلى .

وعن أبي بريدة -رضي الله عنه- قال: «كنت عند النبي ﷺ فسمعتة يقول: إن القرآن يلقي صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره: كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك فيقول: أنا صاحبك.. القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته، وإنك اليوم من وراء كل تجارة.

قال: فيعطى الملك يمينه، والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتين لا يقوم لهما أهل الدنيا فيقولان: بم كسينا هذا؟ فيقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن ثم يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنة وغرفها فهو في صعود ما دام يقرأ: هداً كان أو ترتيلاً».

وعن معاذ -رضي الله عنه- قال: «كنت في سفر مع رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله حدثنا بحديث فقال: إن أردتم عيش السعداء أو موت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلالة: فادرسوا القرآن فإنه كلام الرحمن وحرس من الشيطان ورجحان في الميزان».

وعن عتبة بن عامر قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم ونحن في الصفة فقال: أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحان - أو العقيق فيأتي بناقتين كومادين زهراوين في غير إثم ولا قطيعة رحم؟ قلنا: كلنا يا رسول الله يحب ذلك.. قال: لأن يغدو أحدكم كل يوم إلى المسجد فيتعلم آيتين من كتاب الله خير له من ناقتين وثلاث خير له من ثلاث من أعدادهن من الإبل».

وعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة والذي يتتبع فيه له أجران». وروى عن أبي ذر أنه جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أخاف أن أتعلم القرآن ولا أعمل به فقال ﷺ: «لا يعذب الله قلباً أسكنه القرآن».

وعن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «من علم آية من كتاب الله كان

له أجرها ما تليت» .

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن مؤثرا فإن فيه علم الأولين والآخرين ألم تسمعوا قوله: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾» .

وعن وائلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أعطيت السبع الطوال مكان التوراة وأعطيت المائدة مكان الإنجيل وأعطيت المثاني مكان الزبور، وفضلت بالمفصل» .

وعن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- أنه قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» .

قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: افتخرت السماء على الأرض فقالت: أنا أفضل: في العرش والكرسي واللوح والمقام وفي جنة المأوى وجنة عدن وفي الشمس والقمر والنجوم ومنى ينزل أرزاق الخلق وفي الرحمة فقالت الأرض: وتركت أن تقول: في الأنبياء والأولياء وفي بيت الله بل قالت: أليس تنقلب أضلاع حملة القرآن في بطني فقال الله: صدقت يا أرض وكان افتخارها على السماء أن قال الله لها: صدقت! .

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ «مثل الذي يقرأ القرآن ويعمل به مثل الأترجة: طعمها طيب وريحها طيب، ومثل الذي لا يقرأ القرآن ويعمل به مثل التمرة: طعمها طيب ولا ريح لها، ومثل الذي يقرأ القرآن ولا يعمل به: كمثل الريحانة لها رائحة وطعمها مر، ومثل الذي لا يقرأ القرآن ولا يعمل به مثل الحنظلة: لا طعم لها ولا رائحة» .

وسئل النبي ﷺ: «من أحسن الناس صوتًا؟ قال: من إذا سمعته يقرأ خشية: تخشى الله وكان ﷺ يقول لأصحابه: اقرأوا القرآن بحزن فإنه نزل بحزن» .

وقال ﷺ: «إن هذه القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد قيل: فما جلاؤها يا رسول الله قال: ذكر الموت وتلاوة القرآن. ألم تسمعوا قوله تعالى: ﴿وشفاء لما فى الصدور﴾»^(١).

وقال عليه السلام: القرآن هو الدواء.

وقال: «لا فاقة بعد القرآن ولا غنى دونه» وقال: «ما آمن بالقرآن من استحل محارمه» وقال: «القرآن شافع مشفع أو ماحل مصدق». وقال: «من قرأ القرآن وعمل بما فيه: لم يرد إلى أرذل العمر».

وقال فى قوله: ﴿يتلونه حق تلاوته﴾ قال: يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه.

النجاة من عذاب القبر

إذا سألنا وقلنا: ما هى أسباب المنجيات من عذاب القبر حتى نأخذ فى تحصيلها؟

فإن الجواب على ذلك يكون من وجهين: أحدهما مجمل والآخر مفصل.

أما المجمل: فهو تجنب تلك الأسباب التى تقتضى عذاب القبر ومن أنفعها أن يجلس الرجل عندما يريد النوم لله ساعة يحاسب نفسه فيها على ما خسره وربحه فى يومه، ثم يجدد له توبة نصوحاً بينه وبين الله فينام على تلك التوبة، ويعزم على أن لا يعاود الذنب إذا استيقظ ويفعل هذا كل ليلة فإن مات من ليلته مات على توبة وإن استيقظ استيقظ مستقبلاً للعمل مسروراً بتأخير أجله حتى يستقبل ربه ويستدرك ما فاتته وليس للعبد أنفع من هذه النومة، ولا سيما إذا عقب ذلك بذكر الله واستعمال السنن التى وردت عن رسول الله ﷺ عند النوم حتى يغلبه النوم، فمن أراد الله به خيراً وفقه لذلك ولا قوة إلا بالله

(١) سورة يونس الآية ٥٧.

أما الجواب المفصل فذكر أحاديث عن رسول الله ﷺ فيما ينجى من عذاب القبر: فمنها: ما رواه مسلم في صحيحه عن سلمان -رضي الله عنه- قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه وإن مات أجرى عليه عمله الذي كان يعمل وأجرى عليه رزقه وأمن الفتان»

وفي جامع الترمذي من حديث فضالة بن عبيد عن رسول الله ﷺ قال: «كل ميت يختم على عمله إلا الذي مات مرابطاً في سبيل الله فإنه ينمى له عمله إلى يوم القيامة ويأمن من فتنة القبر» قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وفي سنن النسائي عن رشدي بن سعد عن رجل من أصحاب النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله ما بال المؤمنين يفتنون في قبورهم إلا الشهيد؟ قال: كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة.

وعن المقدم بن معديكرب -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع في سبعين من أقاربه» رواه ابن ماجه والترمذي وهذا لفظه وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «ضرب رجل من أصحاب رسل الله ﷺ خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها فأتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله: ضربت خبائي على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر فإذا قبر إنسان يقرأ سورة (الملك) حتى ختمها فقال النبي ﷺ: «هي المانعة، هي المنجية: تنجيه من عذاب القبر» قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

وفي سند عبد بن حميد عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه عكرمة عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال لرجل: ألا أتخفك بحديث تفرح

به؟ قال الرجل: بلى؟ قال: اقرأ: ﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير﴾^(١). احفظها وعلمها. أهلك وولدك وصبيان بيتك وجيرانك فإنها المنجية والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها وتطلب له إلى ربها أن ينجيه من عذاب النار إذا كانت فى جوفه وينجى الله بها صاحبها من عذاب القبر، قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى».

قال أبو عمر بن عبد البر: وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إن سورة ثلاثين آية شفعت فى صاحبها حتى غفر له): ﴿تبارك الذى بيده الملك﴾.

وفى سنن ابن ماجه من حديث أبى هريرة -رضى الله عنه- يرفعه: «من مات مبطوناً: مات شهيداً ووقى فتنة القبر وغدى وريح عليه برزق من الجنة».

وفى سنن النسائى عن جامع بن شداد قال: سمعت عبد الله بن يشكر يقول: «كنت جالساً مع سليمان بن صرة وخالد بن عرفطة فذكروا أن رجلاً مات ببطنه فإذا هما يشتهيان أن يكونا شهدا جنازته فقال أحدهما للآخر: ألم يقل رسول الله ﷺ: من قتله بطنه لم يعذب فى قبره».

وقال أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنا شعبة حدثنى أحمد بن جامع بن شداد قال أبى فذكره وزاد: فقال الآخر: بلى.

وفى الترمذى من حديث ربيعة بن سيف عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة إلا وقاه الله فتنة القبر».

قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب وليس إسناده بمتصل.

(١) سورة الملك الآية ١.

وقد جناء فيما ينجي من عذاب القبر حديث فيه الشفاء رواه أبو موسى المديني وبين علته في كتابه (الترغيب والترهيب وجعله شرحاً له) رواه من حديث الفرّج بن نضالة حدثنا هلال أبو جبلة عن سعيد بن المسيب عن عبد الرحمن بن سمرة قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في صفة بالمدينة فقام علينا فقال: إني رأيت البارحة عجباً رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه فجاءه بره بوالدين فرد ملك الموت عنه. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين فجاء ذكر الله فطير الشياطين عنه. ورأيت رجلاً من أمتي احتوشته ملائكة العذاب فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم. ورأيت رجلاً من أمتي يلهث عطشاً كلما دنا من حوض منع وطرد فجاءه صيام شهر رمضان فأسقاه ورواه. ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيّ جلوساً حلقاً حلقاً كلما دنا إلى حلقة طرد ومنع فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعدته إلى جنبى. ورأيت رجلاً من أمتي من بين يديه ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة وهو متحير فيها فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور. ورأيت رجلاً من أمتي يتقى وهج النار وشررها فجاءته صدقته فصارت سترًا بينه وبين النار وظلاً على رأسه. ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه فجاءته صلته لرحمه فقالت: يا معشر المؤمنين إنه كان وصولاً لرحمه فكلّموه فكلّمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم. ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الزبانية فجاءه أمره بالمعروف ونهيّه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله في ملائكة الرحمة. ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتين وبينه وبين الله حجاب فجاءه حسن خلقه فأخذه بيده فأدخله على الله عز وجل. ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قبل شماله فجاءه خوفه من الله -عز وجل- فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه. ورأيت رجلاً من أمتي خف ميزانه فجاءه إفراطه فثقلوا ميزانه. ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم فجاءه رجاؤه من الله عز وجل

فاستنقذه من ذلك ومعنى ورأيت رجلاً من أمتى قد هوى فى النار فجاءته دمعته التى بكى من خشية الله - عز وجل - فاستنقذته من ذلك . ورأيت رجلاً من أمتى قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة فى ربح عاصف فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن روعه ومضى . ورأيت رجلاً من أمتى يزحف على الصراط يحبو أحياناً ويتعلق أحياناً فجاءته صلاته فأقامته على قدميه وأنقذته . ورأيت رجلاً من أمتى انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة .

قال الحافظ أبو موسى : هذا حديث حسن جداً فبادر يا أخى بالأعمال الصالحة كما أمرك بذلك مولانا سبحانه وتعالى فى قوله : ﴿فاستبقوا الخيرات﴾^(١) وفى قوله عز وجل ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾^(٢) .

وفى قوله جل شأنه ﴿سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾^(٣) .

وفى قوله تبارك وتعالى ﴿وفى ذلك فليتنافس المتنافسون﴾^(٤) . قال ﷺ : «بادروا بالأعمال الصالحة سبعا هل تنتظرون إلا فقراً منسياً ، أو غنى مطغياً ، أو هرمًا مفندًا ، أو مرضًا مفسدًا ، أو موتًا مجهزًا ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة والساعة أدهى وأمر» . فكن لله ذاكرًا وإياك ونسيان الموت فنسيانه ضلال مبين . واعلم بأن خير الأعمال : ذكر الله .

(١) سورة البقرة الآية ١٤٨ . (٢) سورة آل عمران الآيتان [١٣٣ ، ١٣٤] .

(٣) سورة الحديد الآية ٢١ . (٤) سورة المطففين الآية ٢٦ .

والذكر على سبعة أنحاء:

ذكر العينين: البكاء.

ذكر الأذنين: الإصغاء.

ذكر اللسان: الثناء.

ذكر اليدين: العطاء.

ذكر البدن: الوفاء.

ذكر الروح: الخوف والرجاء.

ذكر القلب: التسليم والرضاء.

فضل ذكر الله

قال صلوات الله وسلامه عليه: «ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده».

وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند ملكيكم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قلنا: بلى قال: ذكر الله».

مناجاة

ما والذى أبكى وأضحك والذى

أمات وأحيا والذى أخرج المرعى

لقد خاب من يسعى إلى غير بابه

وضل الذى يوماً إلى غيره يدعى

هو القصد لا شىء سواه فمن سعى

إلى غير ذاك القصد ياخية المسعى

هو الماجد البر الرحيم وغيره

من الناس لا يستطيع ضرراً ولا نفعاً

يعامل بالغفران والصفح من عصي
ويوصل من يستوجب الهجر والقطعا
فسبحانه لا رب في الكون غيره
يحب الذي يلقي إلى قوله السمعا
سؤال القبر

اعلم بأن سؤال القبر: يعم المؤمن والكافر والقرآن والسنة يؤيدان ذلك.

«يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء» (١).

وقد ثبت في الصحيح أنها نزلت في عذاب القبر حين يسأل: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ .

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه: إنه ليسمع قرع نعالهم» وذكر الحديث.

زاد البخاري :

وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول كما يقول الناس فيقال: لا دريت ولا تليت... ويضرب بمطرقة من حديد يصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين. وقد أخبر الله في كتابه أنه يسأل الكافر يوم القيامة قال تعالى: «ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين» (٢). وقال تعالى: «فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون» (٣). وقال تعالى: «فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين» (٤).

(٢) سورة القصص الآية ٦٥ .

(٤) سورة الأعراف الآية ٦ .

(١) سورة إبراهيم الآية ٢٧ .

(٣) سورة الحجر الآية ٩٢ .

فإذا سئلوا يوم القيامة: فكيف لا يسألون في قبورهم؟

مستقر الأرواح

هناك أسئلة تتعلق بالروح وتجد النفس اشتياقًا ملحًا لمعرفة الإجابة عنها...

وأول هذه الأسئلة:

أين مستقر الأرواح ما بين الموت إلى يوم القيامة؟
ويتفرع عن هذا السؤال أسئلة تقول:

هل هي في السماء أم في الأرض؟.. وهل هي في الجنة. أم لا؟.
قال العلماء - تعقيبًا على هذه الأسئلة - : هذه مسألة عظيمة تكلم فيها الناس .. ومصدر الإجابة عنها هو السمع: أي من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

يرى العلماء أن أرواح المؤمنين عند الله في الجنة: شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم تجبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وإن روح الكافر في النار.

واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ. فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾^(١).

قال المستدل: وهذا قد ذكره سبحانه وتعالى عقب ذكر خروجها من البدن بالموت في قوله جل شأنه: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينْتُمْ تَنْظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تَبْصُرُونَ. فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

قال سبحانه بعد ذلك: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقْرَبِينَ. فَرُوحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّةٌ نَعِيمٌ﴾^(٣).

(١) سورة الواقعة الآيتان [٨٨ ، ٨٩].

(٢) سورة الواقعة الآيتان [٨٣ : ٨٧].

(٣) سورة الواقعة الآيتان [٨٨ : ٨٩].

فقد قسم الأرواح إلى ثلاثة أقسام:
(مقربين) . . . أخبر أنها فى جنة النعيم .
(وأصحاب يمين): حكم لها بالسلام، وهو يتضمن سلامتها من
العذاب .

(ومكذبة ضالة): وأخبر أن لها نزلاً من حميم وتصلية جحيم .
قالوا: وهذا بعد مفارقتها للبدن قطعاً .
وقد ذكر سبحانه حالها يوم القيامة فى أول السورة، فذكر حالها
بعد الموت وبعد البعث .
واحتجوا بقوله تعالى: ﴿يا أيها النفس المطمئنة. ارجعى إلى ربك
راضية مرضية. فادخلى فى عبادى، وادخلى جنتى﴾^(١) .
وقد قال غير واحد من الصحابة والتابعين: إن هذا يقال لها عند
خروجها من الدنيا أيبشرها الملك بذلك .

ولا ينافى ذلك قول من قال إن هذا يقال لها فى الآخرة، فإنه يقال
لها عند الموت وعند البعث، وهذه من البشرى التى قال الله فيها: ﴿إن
الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا. تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا
تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون﴾^(٢) .
وهذا التنزل يكون عند الموت، ويكون فى القبر، ويكون عند
البعث، وأول بشارة الآخرة عند الموت .

وقد جاء فى حديث رسول الله ﷺ أن الملك يقول لها عند قبضها:
أبشرى بروح وريحان . وهذا من ريحان الجنة وروى الإمام مالك فى
(الموطأ) عن ابن شهاب عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أنه أخبره أن
أباه كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة
المؤمن: طائر تعلق فى شجرة الجنة حتى يرجعه الله إلى حياة يوم يبعثه» .

(١) سورة الفجر الآيتان [٢٧ : ٣٠] . (٢) سورة فصلت الآية ٣٠ .

قال أبو عمرو: المراد بنسمة المؤمن: روحه. وقد شاء فضل الله تعالى أن يخص الشهداء بمنازل كريمة ودرجات رفيعة، جزاء ما بذلوا وقاتلوا وقتلوا.

قال عليه السلام: «لشاهد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويحلى حلة الإيمان، ويزوج من الحور العين، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفرع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار: الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنين وسبعين من الحور العين، ويشفع في سبعين إنساناً من أقاربه».

فلما كان هذا يختص بالشاهد قال: «إن للشاهد» ولم يقل: «إن للمؤمن». وكذلك قوله في حديث قيس الجزامي: «يعطى الشاهد ست خصال». وكذلك سائر الأحاديث والنصوص التي علق فيها الجزاء بالشهادة.

وعنه عليه السلام أنه قال: «أرواح الشهداء تجول في أجواف طير خضر تعلق في ثمر الجنة».

وعن معمر عن قتادة قال: بلغنا أن أرواح الشهداء في صور بيض تأكل من ثمار الجنة.

وعن أبي عاصم الشيبلي عن ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن عبد الله بن عمرو: «أرواح الشهداء في طير كالزراير يتعارفون ويرزقون من ثمرة الجنة».

قال أبو عمر: هذه الآثار كلها تدل على أنهم الشهداء، دون غيرهم. وفي بعضها «في صور طير». وفي بعضها «في أجواف طير» وفي بعضها «كطير خضر».

قال: والذي يثبت عندي -والله أعلم- أن يكون القول قول من قال «كطير» أو «صور الطير»:

ثم: مازلنا بصدد الحديث عن مستقر الأرواح.

قال أبو عبد الله بن منده: وروى موسى بن عبيدة عن عبد الله بن يزيد عن أم كبشة بنت المعرور قالت: «دخل علينا رسول الله ﷺ، فسألناه عن هذه الأرواح؟ فوصفها صفة أبكى أهل البيت. فقال: «إن أرواح المؤمنين في حواصل طير خضر، ترعى في الجنة، وتأكل من ثمارها، وتشرب من مائها، وتأوى إلى قناديل من ذهب تحت الدش يقولون: ربنا ألحق بنا إخواننا وآتنا ما وعدتنا».

وإن أرواح الكفار في حواصل الطير سود، تأكل من النار وتشرب من النار، وتأوى إلى حجر في النار. يقولون: ربنا لا تلحق بنا إخواننا ولا تؤتنا ما وعدتنا.

وقال الطبراني: حدثنا أبو زرعة الدمشقي، حدثنا عبد الله بن صالح حدثني معاوية بن صالح عن صخرة بن حبيب قال: سئل النبي ﷺ عن أرواح المؤمنين، فقال: في طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت قالوا يا رسول الله وأرواح الكفار؟ قال محبوسة في سجين.

رواه أبو الشيخ عن هشام بن يونس عن عبد الله بن صالح (ورواه) أبو المغيرة عن أبي بكر بن أبي مريم عن صخرة بن حبيب.

وعن تميم الرازي عن النبي ﷺ أنه قال: إذا عرج ملك الموت بروح المؤمن إلى السماء: استقبله جبرائيل في سبعين ألفاً من الملائكة كل منهم يأتيه ببشارة من السماء، سوى بشارة صاحبه فإذا انتهى به إلى العرش: خر ساجداً فيقول الله - عز وجل - لملك الموت: انطلق بروح عبدي فضعه في سدر مخضود وطلح منضود وظل مدود وماء مسكوب.

رواه بكر بن خنيس عن خدار بن عمرو عن زيد وأبي عبد الله.

كلمة عن الروح

اعلم يا أخي - وفقني الله وإياك - أن الروح لا يمنعها شيء من الإشراف والاتصال بالقبر وفنائته. . . وذلك القدر من الإشراف كاف لعرض مقعده عليه. . . فإن للروح شأنًا آخر: تكون في الرفيق الأعلى

فى أعلى عليين ولها اتصال بالبدن سلم المسلم على الميت رد الله عليه روحه فيرد عليه السلام وهى فى الملاء الأعلى.

ومن الخطأ الشنيع أن يعتقد بعض الناس أن الروح من جنس ما يعهد من الأجسام التى إذا شغلت مكاناً لا يمكن أن تكون فى غيره. وهذا خطأ محض... بل الروح تكون فوق فى أعلى عليين وترد إلى القبر فتد السلام. وتعلم بالمسلم وهى فى مكانها هناك وروح رسول الله ﷺ فى الرفيق الأعلى دائماً ويردها الله سبحانه وتعالى إلى القبر فتد السلام على من سلم عليه وتسمع كلامه.

وقد رأى رسول الله ﷺ موسى قائماً يصلى فى قبر، ورآه فى السماء الخامسة والسادسة والسابعة: فإما أن تكون سريعة الحركة والانتقال كلمح البصر، وإما أن يكون المتصل منها بالقبر وفنائها بمنزلة شعاع الشمس وجرمها فى السماء.

وقد ثبت أن روح النائم تصعد حتى تخترق السبع الطباق وتسجد لله بين يدى العرش، ثم ترد إلى جسده فى أيسر زمان. وكذلك روح الميت: تصعد بها الملائكة حتى تجاوز السماوات السبع، وتقف بين يدى الله فتسجد له، ويقضى فيها قضاء، ويرىها الملك ما أعد الله لها فى الجنة، ثم تهبط فتشهد غسله وحمله ودفنه.

وقد ذكر أبو عبد الله بن منده من حديث عيسى بن عبد الرحمن: حدثنا ابن شهاب، حدثنا عامر بن سعد عن إسماعيل بن طلحة ابن عبيد الله عن أبيه قال: «أردت مالى بالغابة، فأدركنى الليل، فأويت إلى قبر عبد الله بن عمرو بن حرام، فسمعت قراءة من القبر ما سمعت أحسن منها فجئت إلى رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال: ذلك عبد الله... ألم تعلم أن الله قبض أرواحهم فجعلها فى قناديل من زبرجد وياقوت ثم علقها وسط الجنة، فإذا كان الليل ردت إليهم أرواحهم فلا يزال كذلك، حتى إذا طلع الفجر: ردت أرواحهم إلى مكانهم الذى كانت به».

ففى هذا الحديث: بيان سرعة انتقال أرواحهم من العرش إلى الثرى، ثم انتقالها من الثرى إلى مكانها.

ولهذا قال مالك وغيره من الأئمة: إن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت وما يراه الناس من أرواح الموتى ومجيئهم إليهم من المكان البعيد: أمر يعلمه عامة الناس . ولا يشكون فيه .

ابن القيم والعلاقة بين الحى والميت

عقد العلامة ابن القيم فصلاً يدور حول سؤال، مفاده: هل تعرف الأموات زيارة الأحياء وسلامهم . أم لا؟ ولما كان هذا السؤال يلقي ظلالاً على نفس السائل: لابد من كشف الغطاء عنها . . فإن الإجابة جاءت موافقة للقاعدة التى قعدناها من قبل، والتى تفيد أن المصدر الحقيقى لما يدور بعد الموت: إنما هو السماع من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

ولذا بدأ «ابن القيم» الإجابة قائلاً:

قال ابن عبد البر ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يمر على قبر أخيه كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه، إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام .

وفى الصحيحين عنه ﷺ - من وجوه متعددة - «أنه أمر بقتلى بدر فألقوا فى قليب، ثم جاء حتى وقف عليهم وناداهم بأسمائهم: يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقاً فقال له عمر: يا رسول الله: ما تخاطب من أقوام قد جيفوا . . . فقال: والذى بعثنى بالحق: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون جواباً» .

وثبت عنه ﷺ أن الميت يسمع قرع نعال المشيعين له، إذا انصرفوا عنه . وقد شرع النبى ﷺ لأئمة: إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه، فيقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين» وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل . ولولا ذلك: لكان هذا الخطاب بمنزلة خطاب لمعدوم والجماد .

والسلف الصالح مجموعون على هذا وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف زيارة الحى له، ويستبشر به .

وقال أبو بكر عن عبدالله بن محمد بن عبيد بن أبى الدنيا فى كتاب

«القبور»: باب معرفة الموتى بزيارة الأحياء:

حدثنا محمد بن عون، حدثنا يحيى بن يمان عن عبد الله بن سمعان عن زيد بن أسلم عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده: إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم».

حدثنا محمد بن قدامة الجوهري، حدثنا معن بن عيسى القزاز، أخبرنا هشام بن سعد، حدثنا زيد بن أسلم عن أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- قال: «إذا مر الرجل بقبر أخيه يعرفه فسلم عليه: رد عليه السلام وعرفه، وإذا مر بقبر لا يعرفه فسلم عليه: رد عليه السلام».

حدثنا محمد بن الحسين، حدثني يحيى بن بسطام الأصغر حدثني مسمع حدثني رجل من آل عاصم الجحدري قال: «رأيت عاصمًا الجحدري في منامي بعد موته بستين فقلت: أليس قد مت؟ قال: بلى، قلت: فأين أنت؟ قال: أنا والله في روضة من رياض الجنة... أنا ونفر من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى بكر بن عبد الله المزني فتتلقى أخباركم. قال: قلت: أجسادكم أم أرواحكم؟ قال: هيهات... بليت الأجسام، وإنما تتلاقى الأرواح، قال: قلت: فهل تعلمون بزيارتنا إياكم؟ قال: نعم، نعلم بها عشية الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس، قال، قلت: فكيف ذلك دون الأيام كلها؟ قال: لفضل يوم الجمعة وعظمته».

وحدثنا محمد بن الحسين وحدثني بكر بن محمد، حدثنا حسن القصاب قال: كنت أغدو مع محمد بن واسع في كل غداة سبت حتى نأتى المقابر فنقف على القبر فنسلم عليهم وندعو لهم، ثم ننصرف، فقلت ذات يوم: لو صيدت هذا اليوم -يوم الإثنين- قال: بلغني أن الموتى يعلمون بزوارهم يوم الجمعة ويوم قبلها ويوم بعدها.

حدثني محمد، حدثنا عبدالعزيز بن أبان، قال: حدثنا سفيان الثوري، قال: «بلغني عن الضحاك أنه قال: من زار قبراً يوم السبت قبل طلوع الشمس: علم الميت بزيارته، فقل له: وكيف ذلك؟ قال: لمكان يوم الجمعة».

حدثني محمد بن الحسين، حدثني يحيى بن أبي بكر حدثني

حدثني محمد، حدثني أحمد بن سهل، حدثني رشد بن سعد عن رجل عن يزيد بن أبي حبيب أن سليم بن عمير مر على مقبرة وهو حاقن قد غلبه البول فقال له بعض أصحابه: «لو نزلت إلى هذه المقابر فبُلت في بعض حضرها، فبكى، ثم قال: سبحان الله!! والله إنى لأستحي من الأموات كما أستحي من الأحياء».

ولولا أن الميت يشعر بذلك: لما استحييت منه.

قال العلامة ابن القيم: وأبلغ من ذلك: أن الميت يعلم بعمل الحى من أقاربه وإخوانه.

قال عبدالله بن المبارك: حدثني ثور بن يزيد عن إبراهيم عن أبي أيوب، قال: «تعرض أعمال الأحياء على الموتى فإذا رأوا حسناً: فرحوا واستبشروا، وإذا رأوا سوءاً: قالوا اللهم راجع به».

وذكر ابن أبي الدنيا عن أحمد بن أبي الخوارى قال: حدثني محمد أخى، قال: «دخل عباد بن عباد على إبراهيم بن صالح وهو على فلسطين، فقال: عظمى، قال: بم أعظك؟ أصلحك الله... بلغنى أن أعمال الأحياء تعرض على أقاربهم الموتى، فانظر ما يعرض على رسول الله ﷺ من عملك؟ فبكى إبراهيم حتى اخضلت لحيته».

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحسين، وحدثني خالد بن عمرو الأموى، حدثنا صدقة بن سليمان الجعفرى قال: كنت قد أذنبت ذنباً - ثم أنبت وتبت وندمت على ما فرطت، قال: ثم زللت أيما زلة، فرأيت فى المنام، فقال: أى بنى: ما كان أشد فرحى بك.. أعمالك تعرض علينا فنشبهها بأعمال الصالحين، فلما كانت هذه الزلة: استحييت لذلك جياء شديداً فلا تحزننى، فمن حولى الأموات... قال: فكنت أسمع بعد ذلك يقول فى دعائه فى السحر - وكان جاراً لى بالكوفة: أسألك إنابة لا رجعة فيها ولا حوراً يا مصلح الصالحين ويا هادى المضلين ويا أرحم الراحمين:

وهذا باب فى آثار كثيرة عن الصحابة، وكان بعض الأنصار من أقارب عبدالله بن رواحة يقول: اللهم إني أعوذ بك من عمل أخزى به عند عبدالله بن رواحة كان يقول ذلك بعد أن استشهد عبدالله.

ويكفى فى هذا تسمية المسلم عليهم زائر ولولا أنهم يشعرون به، لما صح تسميته زائراً فإن المزور إن لم يعلم بزيارة من زاروه: لم يصح أن يقال زاره.

هذا هو المعقول من الزيارة عند جميع الأمم، وكذلك: السلام عليهم أيضاً.. فإن السلام على من لا يشعر ولا يعلم بالمسلم: محال.

وقد علم النبى ﷺ أمته إذا زاروا القبور أن يقولوا: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية».

قال يزيد بن هارون: أخبرنا سليمان التيمى، عن أبى عثمان النهدي أن ابن ساس خرج فى جنازة فى يوم وعليه ثياب خفاف فأتتهى إلى قبر... قال: فصليت ركعتين ثم اتكأت عليه فوالله إن قلبى ليقظان إذ أسمعت صوتاً فى القبر: إليك عنى لا تؤذنى فانكم قوم تعملون ولا تعلمون ونحن قوم نعلم ولا نعمل ولأن يكون لى مثل ركعتيك أحب إلى من كذا وكذا».

فهذا قد علم باتكاء الرجل على القبر وبصلاته. وقال ابن أبى الدنيا: حدثنى الحسين بن على العجلي حدثنا محمد بن الصلت، حدثنا إسماعيل بن عياش عن ثابت بن سليم حدثنا أبو قلابة، قال: أقبلت من الشام إلى البصرة فنزلت منزلاً فتطهرت وصليت ركعتين بليل ثم وضعت رأسى على قبر فنمت ثم انتبهت، فإذا صاحب القبر يشتكىنى، يقول: قد أذيتنى منذ الليلة.. ثم قال: إنكم تعملون ولا تعلمون ونحن نعلم ولا نقدر على العمل ثم قال: الركعتان اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها. ثم قال: جزى الله أهل الدنيا خيراً.. أقرئهم منا السلام، فإنه يدخل علينا من دعائهم نوراً أمثال الجبال».

استئناس الميت بالمشييعين لجنازته

ثبت في الصحيح أن الميت يستأنس بالمشييعين لجنازته بعد دفنه . . .
روى مسلم في صحيحه من حديث عبدالرحمن بن شماسه
المهدى، قال: «حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت، فبكى
طويلاً وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: ما يبكيك يا أبتاه؟ أما
بشرك رسول الله ﷺ بكذا، فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما بعد
شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإنى كنت على أطباق
ثلاث، لقد رأيتنى وما أحد أشد بغضاً لرسول الله ﷺ منى ولا أحب
إلى أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو مت على تلك الحال لكنت
من أهل النار. فلما جعل الله الإسلام في قلبي: لقيت رسول الله ﷺ،
فقلت: أبسط يديك فلايباعك، فبسط يمينه قال: فقبضت يدي، قال:
فقال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشتري قال: تشتري ماذا؟
قلت أن يغفر لى. قال: أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله وأن
الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، وما كان أحداً
أحب إلى من رسول الله ﷺ، ولا أجل فى عينى منه، وما كنت أظن
أن أملاً عينى منه إجلالاً له ولو سئلت أن أصفه ما أطق، لأننى لم أكن
أملاً عينى منه، لو مت على تلك الحال: لرجوت أن أكون من أهل
الجنة. . ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالى فيها، فإذا أنا مت فلا تصاحبني
نائحة ولا نار، فإذا دفنتموني: فسنوا على التراب سناً ثم أقيموا حول
قبرى قدر ما تنمر جزور ويقسم لحمها حتى استأنس بكم، وأنظر ماذا
أراجع به رسل ربى.

فدل ذلك على أن الميت يستأنس بالحاضرين عند قبره ويسر بهم.
وقد ذكر عن جماعة من السلف الصالح أنهم أوصوا أن يقرأ عند
قبورهم وقت الدفن.

قال عبدالحق: يروى أن عبدالله بن عمر أمر أن يقرأ عند قبره سورة البقرة. وممن رأى ذلك: الملعلى بن عبدالرحمن وكان الإمام أحمد منكر ذلك أولاً، حيث لم يبلغه فيه أثر، ثم رجع عن ذلك.

الماديون والموت

إن الصلة بين الحى والميت أكبر وأستر وأقوى من صلة الأحياء بالأحياء. وخاطئ كل الخطأ: من ظن أن الموت حكم بالإعدام وهذا ما يردده الماديون الغافلون المضلون، إن الموت مرحلة انتقال من عالم الفناء إلى عالم الخلود والبقاء.

انتقال من جوار الخلق إلى رحاب الحق. انكشاف للحجب الكثيفة. ﴿لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ (١).

والذى أوقع الماديين فى هذه الهوة السحيقة من الضلال حتى ذهبوا إلى فهم الموت على أنه انطفاء الحرارة وتحلل الرطوبات وقالوا: ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما هى إلا الأرحام تدفع وأرض تبلع.

الذى أوقعهم فى هذا الضلال: أنهم قاسوا الغائب على الشاهد وطلبوا المحسوس فى غير المحسوس سقط خلفه يعم عن المحسوس كغشاء عين الخفافيش عن رؤية الأجسام البينة لنا فى ضوء الشمس: قل لهؤلاء الماديين الحسيين: وهل نحن أبصرنا قوانين الكون، وهل وقعت أجزاءه تحت حسنا، هل رأت أبصارنا الأشعة فوق البنفسجية أو تحت الحمراء؟

هل أدركنا حقيقة المغناطيسية أو الجاذبية أو الضوء أو الأثير؟ هل وقعت أيدينا على هذه الحقائق الماثلة فى هذا الكون الرحيب؟ فإذا كنا لم ندرك حقيقتها .. فكيف تصل عقولنا إلى أن نكيف

(١) سورة ق الآية ٢٢.

عالم البرزخ، وهو محيط أعنف من أن يعجز عبابه سباح ماهر .
إن إدراك عالم البرزخ: ليس مجاله الحسن كما أن العقل يقف
واجماً أمام بحاره .

إنما طريقه: الوحي المعصوم .

فإن الموت أمر متعلق بالروح، قال تعالى: ﴿ويسألونك عن الروح
قل الروح من أمر ربي .. وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾^(١) .

تعلقات الروح بالبدن

اعلم . وفقنى الله وإياك أن للروح خمسة تعلقات بالبدن:

التعلق الأول:

تعلقها به فى عالم الأرحام: فبعد أن مضت مدة النطفة فالعلقة،
فالمضغة: نفخ الله فيها الأرواح... قال تبارك اسمه: ﴿ذلك عالم الغيب
والشهادة العزيز الرحيم. الذى أحسن كل شىء خلقه، وبدأ خلق الإنسان
من طين ثم جعل نسله من سلاله من ماء مهين. ثم سواه ونفخ فيه من
روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾^(٢) .

التعلق الثانى:

تعلقها بالبدن فى هذه الدنيا حيث تقوم ببث الحياة فينصرف البدن
ويباشر أعباء الحياة قال تبارك اسمه: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر... فتبارك الله
أحسن الخالقين﴾^(٣) .

التعلق الثالث:

تعلقها بالبدن عند النوم فإنها وقتذاك يكون لها مباشرة من وجه
خاص... قال جل شأنه: ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت

(٢) سورة السجدة الآيات [٩:٦] .

(١) سورة الإسراء الآية ٨٥ .

(٣) سورة المؤمنون الآية ١٤ .

فى منامها فىممسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون»^(١).
التعلق الرابع:

تعلقها بالبدن بعد الموت فى عالم البرزخ.. قال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت.. كلا.. إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾^(٢).
التعلق الخامس:

تعلقها به يوم القيامة بعد البعث.. قال جل جلاله: ﴿ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، وأشرققت الأرض بنور ربها﴾^(٣).
وقال عز من قائل: ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾^(٤).

ملاحظة جديرة بالاعتبار

من تأمل التعلقات السابقة: يلاحظ أن كل مرحلة من هذه المراحل أوسع أفقاً وأرحب منزلة عما قبلها.
ولذا قيل: إن خروج المؤمن من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة: كمخروج الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا:
فتعلق الروح بالجنين فى الرحم مكان ضيق، وتعلقها به فى الدنيا حال اليقظة مكان أوسع، وتعلقها به فى المنام أرحب وأوسع حيث تنتقل الروح فى أرجاء الكون.
والموت أوسع وأوسع:
فقد جاء فى الحديث: «لتموتن كما تنامون».
ولأن الموت تخلص من ظلمة المادة مما يعطى الروح رحابة أفق.
وتعلقها به بعد البعث: أشد رحابة وأوسع أفقاً.

(١) سورة الزمر الآية ٤٢. (٢) سورة المؤمنون الآية ١٠٠.
(٣) سورة الزمر الآيتان [٦٨ ، ٦٩]. (٤) سورة المؤمنون الآيتان [١٥ ، ١٦].

ما راد عن قوتنا فالمسلمون به
أولى فقسمى لبيت المال رديها
كذلك أخلاقه كانت وما عهدت
بعد النبوة أخلاق تحاكيها
هذا هو أمير المؤمنين فانظروا كيف يحاسب نفسه واعجبوا كيف
يقول: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا؟ .
فما للعيون أصبحت لا تدمع وما للأذان أصبحت لا تسمع وما
للقلوب أصبحت لا تخشع وما للأبدان أصبحت لا تسجد ولا تركع .
عجبت لمن يؤمن بالقدر ثم هو يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالرزق
ثم هو ينصب، وعجبت لمن يؤمن بالموت ثم هو يفرح، ثم يؤمن بالنار
ثم هو يضحك، وعجبت لمن يؤمن بالحساب غداً ثم هو لا يعمل،
وعجبت لمن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن لها .
يقول حجة الإسلام أبو حامد الغزالي -رضي الله عنه- في كتاب
الإحياء:

وفي كتاب المراقبة والمحاسبة ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على كل جارية
بما اجتاحت، المطلع على ضمائر القلوب إذا هي هجست، الحسيب على
خواطير عباده إذا اختلجت الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في
السموات والأرض تحركت أو سكنت، المحاسب على النقيير والقطمير
والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت، المتفضل بقبول طاعات العباد
وإن صغرت المتطول بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت، وإنما يحاسبهم
لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا
لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في صعيد القيامة وهلك
وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها المزجاة لخابت

أو يعاتبه رابعًا، فكذلك العقل يحتاج إلى مشاركة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشترط عليها الشروط ويرشدها إلى طريق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة فإنه لو أهملها لم ير منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء ولا خير في خير لا يدوم، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقى الفرح بانقطاعه دائماً وقد انقضى الشر، والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير ولذلك قيل:

أشد الغم عندي في سرور تيقن عنه صاحبه انتقالا
فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن
محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها
وحظواتها، فإن النفس من أنفاس العمر كجوهرة نفيسة لا عوض لها
يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقضاء
هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك خسران عظيم
هائل لا تسمح به نفس عاقل فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح
ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشاركة النفس كما أن التاجر عند تسليم
البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول: للنفس ما لى
بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال ووقع اليأس عن التجارة
وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهلنى الله فيه وأنا فى أجلى، وأنعم
علىّ به ولو توفانى لكنت أتمنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوماً واحداً حتى
أعمل فيه صالحاً فاحسبى أنك قد توفيت ثم قد رددت فأياك ثم إياك أن

تضيئى هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها، واعلمى يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة وقد ورد فى الخبر «أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نوراً من حسناته التى عملها فى تلك الساعة فينال من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التى هى وسيلته عند الملك الجبار ما لو ورع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة يفوح ننتها ويغشاها ظلامها وهى الساعة التى عصى الله فيها فينال من الهول والفرع ما لو قسم على أهل الجنة لتتغص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس له فيها ما يسره ولا ما يسوءه وهى الساعة التى نام فيها أو غفل أو اشتغل بشىء من مباحات الدنيا فيتحسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما ينال القادر على الربح الكثير، وهكذا الملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاته وناهيك به حسرة وغبنا، وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه: اجتهدى اليوم فى أن تعمري خزانتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التى هى أسباب ملكك ولا تميلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن والحسرة لا يطاق وإن كان دون من النار وقد قال بعضهم: هب أن المسىء قد عفى عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين.

أشار به إلى الغبن والحسرة وقال تعالى ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾^(١). فهذه وصيته لنفسه فى أوقاته ثم ليستأنف لها وصية فى أعضائه السبعة، وهى: العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فإنها رعايا خادمة لنفسه فى هذه التجارة وبها تتم أعمال هذه التجارة، وإن لجهنم سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تتعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء

(١) سورة التغابن الآية ٩.

بالموت ، فإذا استولت على القلب استعجزت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه ، والموقنون بهذه المعرفة هم المقربون وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليمين ، فمراقبتهم على درجتين : الدرجة الأولى : مراقبة المقربين من الصديقين وهى مراقبة التعظيم والإجلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقًا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرًا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلاً وهذه مراقبة لا تطول النظر فى تفصيل أعمالها فإنها مقصورة على القلب ، أما الجوارح فإنها تتعطل على التلفت إلى المباحات فضلاً عن المحظورات وإذا تحركت بالطاعات كانت كالمستعملة لها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت فى حفظها على سعت السداد بل يسدد الرعية من ملك كلية الراعى ، والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقًا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه همًا واحدًا فكفاه الله سائر الهموم ، ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على ابنه مثلاً فلا يكلمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك فقال له عاتبه : إذا مررت بى فحركنى ولا تستبعد هذا فإنك تجد نظر هذا فى القلوب المعظمة لملوك الأرض حتى أن خدام الملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشتمل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا فيغوص الرجل فى الفكر فيه ويمشى فرماً يجاوز الموضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له وقد قيل لعبدالواحد بن زيد : هل تعرف فى زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله من الخلق ؟ فقال : ما أعرف إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريعاً حتى دخل عتبة الغلام فقال له عبدالواحد بن زيد : من أين جئت يا عتبة فقال : موضع كذا وكان طريقه على السوق ، فقال : من لقيت فى الطريق فقال : ما رأيت أحداً .

أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلا شيئاً ولا شرباً فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى الحقهما أن يعظاني لعلنى أن أنتفع بعظتهما فرفع الشاب رأسه، وقال: يابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيبتة على قلبك يعظك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة المراقبين الذين غلب على قلوبهم الإجلال والتعظيم فلم يبق فيهم متسع لغير ذلك.

الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم على يقين اطلاع الله على ظاهرهم وباطنهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متعة للتلفت إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو من المراقبة، نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يحجبون إلا بعد التثبت منه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فإنهم يرون الله فى الدنيا مطلعاً عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فإنك فى خلوتك قد تتعاطى أعمالاً فيحضرك صبى أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتحسن جلوسك وتراعى أحوالك لا عن جلال وتعظيم بل عن حياء فإن مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فإنها تهيج الحياء فيك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلاً به لا حياء منه، فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى، ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته، وبالجملية جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل، ونظر فى العمل، أما قبل العمل فليُنظر أن ما ظهر له وتحرك بفعله خاطره أهو لله خاصة أو هو من هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق فإن كان لله تعالى أمضاه وإن كان لغير الله استحيا من الله وأنكف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه

وقال على -كرم الله وجهه-: الهوى شريك العمى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طارد الهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصديق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يعرفك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التكرم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق العمر التقوى، وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلجت به مثواك والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فإن لم تأته أذاك.

وإن كنت جازعاً على ما أصيب مما فى يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك واستدل على ما لم يكن بما كان قائماً الأمور أشباه والمرء يسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه فما نالك من دنياك فلا تكثرن به فرحاً وما فاتك منها فلا تتبعه نفسك أسفاً وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما حلقت وشغلك لأخرتك وهمك فيما بعد الموت وغرضاً من نقل هذه الكلمات قوله، ومن التوفيق التوقف عند الحيرة.

فإذن النظر الأول للمراقب نظره فى الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف فى الله لومة لائم ولا يرائى بشيء من علمه وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة أثر الآخرة على الدنيا».

وأكثر ما ينكشف له فى حركاته أن يكون مباحاً ولكن لا يعنيه فيتركه لقوله ﷺ «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه».

النظر الثالث: للمراقبة عند الشروع فى العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقضى حق الله فيه، ويحسن النية فى إتمامه، ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكن وهذا ملازم له فى جميع أحواله فإنه لا يخلو فى جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى فى جميع

ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب .
فإن كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ : «خير
المجالس ما استقبل به القبلة» .

ولا يجلس متربعا إذ لا يجالس الملوك كذلك وملك الملوك مطلع
عليه ، قال إبراهيم بن أدهم -رحمه الله- : جلست مرة متربعا فسمعت
هاتفا يقول : هكذا تجالس الملوك ، فلم أجلس بعد ذلك متربعا وإن كان
ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها
في مواضعها فكل ذلك داخل المراقبة بل لو كان في قضاء الحاجة
فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة .

فإذن لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في
مباح فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها
عن الآفات وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء
والاشتغال بالتفكير وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب .

ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها ولا يخلو العبد في جملة
أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها .
وكل ذلك من المراقبة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله
تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له
على طاعته ، ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام
المراقبة .

فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة
فإذا كان فارغا من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتزم أفضل
الأعمال ليشغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو
مبغون والأرباح تنال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته
كما قال تعالى : ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾^(١) .

وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث : ساعة
مضت لا تعب فيها على العبد .

(١) سورة القصص الآية ٧٧ .

كيفما انقضت فى مشقة أو رفاهية، وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا يدرى العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدرى ما يقضى الله فيها، وساعة راهنة ينبغى أن يجاهد فيها نفسه ويراقب فيها ربه فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحسر على فوات هذه الساعة وإن أتته الساعة الثانية استوفى فى حقه منها كما استوفى من الأول ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزم على المراقبة فيها بل يكون فى وقته كأنه فى آخر أنفاسه فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدرى وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغى أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواه أبو ذر -رضى الله عنه- من قوله عليه السلام.

(لا يكون المؤمن ظاعناً إلا فى ثلاث: تزود لمعاد، أو مرقعة لمعاش، أو لذة فى غير محرم).

وما روى عنه أيضاً فى معناه (وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجى فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يفكر فيها فى صنع الله وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب).

فإن هذه الساعة عوناً على بقية الساعات ثم هذه الساعات التى هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغى أن يخلو عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذى يتناوله فيلاقيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل مركز من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام:

قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون فى عجائب صنعته وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه فى كتاب الشكر، وهذا مقام ذوى الأبواب وقسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهية.

ويلاحظون وجه الاضطراب إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين، وقوم يرون فى الصفة الصانع ويترقون بها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك

سبباً لتذكر أبواب من الفكر تفتتح عليهم بسببه، وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين إذ المحب إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيعه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله - عز وجل - فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إذا فتحت له أبواب الملكوت، وذلك عزيز جداً.

وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرهم من جملة ويذجون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطبيخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطبيخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالى.

وإن من ذم شيئاً خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر».

المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل

ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها

أما الفضيلة فقد قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾^(١) وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ولذلك قال عمر -رضي الله تعالى عنه-: حاسبوا أنفسكم قبل أن تموتوا ووزنوها قبل أن توزنوا وفي الخبر أنه عليه السلام جاءه رجل فقال: يا رسول الله أوصني، فقال: استوصت أنت، فقال: نعم، قال: إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشد فأمضه وإن كان غياً فأنته عنه» وفي الخبر ينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه وقال تعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٢) والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه وقد قال النبي ﷺ: «إني لأستغفر الله تعالى وأ

